الفصل الأول

في العقيدة

obeikandl.com

١ ـ وجـود الله

● اصطفى الله رسلا من خلقه،ليبلغوا رسالته،ولكن كثير من الناس لم يصدقوهم ، لأنهم لم يكن عندهم الاستعداد ليؤمنوا بوجود الله ، ويشهد القرآن الكريم بذلك فيقول : **« وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله »**[١] ..

فما هى الأدلة التى ساقها الأنبياء للمعارضين المنكرين ؟

ـ اختلفت الأدلة حسب اختلاف الشعوب وطبيعة العصور ، كما انقسمت الأدلة الى جانبين :

أحدهما : للتدليل على صدق الرسول وأنه يوحى اليه من الله ،

والثانى : للتدليل على وجود الله لمن ينكر وجوده .

أما التدليل على صدق الرسول ، فكانت المعجزات التى ظهرت على يد كل رسول ، ليثبت للمنكرين أنه رسول من عند الله : فمعجزة موسى كانت السحر ، ومعجزة عيسى كانت احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص ، ومعجزة محمد هى القرآن الكريم .

● لماذا اختلفت المعجزات ؟

ـ لأن المعجزة لا تكون ملزمة الالزام الكافى، الا اذا كانت من جنس ما برع فيه القوم ، فالرسول يأتى بأشياء أكبر مما برعوا فيه ، ومن هنا يكون الاعجاز قد تحقق ،

فقوم موسى اشتهروا بالسحر ، فجاء موسى بما فاق ذلك .

وقوم عيسى برعوا فى الطب ، فأتى عيسى بأعمال فاقت كل ما أتوا به فى هـذا المجـال .

وقوم محمد اشتهروا بالبلاغة والفصاحة ، فجاء محمد بما عجزوا عن الاتيان بأقل سورة منه وهو القرآن الكريم .

---

(١) الأنعام : ١١٦

obeikandi.com

أما الدليل على وجود الله لمن أنكر ذلك فجاء متشابها تقريبا فى كل الرسالات ، ذلك أنه اعتمد فيه على العقل والمشاهدات الطبيعية ، فركز على ما فى الكون من مخلوقات تتغير وتتحرك ، ووجه العقل الى التفكير فى ذلك ، ليصل بنفسه الى أن هذا الكون لابد له من خالق ، فقال تعالى :

« ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقـــوم يتقون »(٢) ..

وقال : **« هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه »**(٣) ..

وقال : **« قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض »**(٤) ..

وقال : **« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهـــار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من الســـماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »**(٥) ..

وقال : **« قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون • قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون • ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيـــه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »**(٦) ..

وحث الله الانسان على التفكير فى نفسه ، كى يهتدى الى خالقه :

« أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة »(٧) ..

وقال : **« فلينظر الانسان مم خلق • خلق من ماء دافق • يخرج من بين الصلب والترائب »**(٨) .

---

(٢) يونس : ٦ .
(٣) لقمان : ١١
(٤) فاطر : ٤٠
(٥) البقرة : ١٦٤
(٦) القصص : ٧١ — ٧٣
(٧) يس : ٧٧
(٨) الطارق : ٥ — ٧

كما حثه على التفكير فيما أنعم عليه من مخلوقات فقال : **« أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون • وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون • ولهم فيها منافع ومشارب ، أفلا يشكرون »**(٩) ••

وقال : **« وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا • لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا »** (١٠) ••

ثم وجه القرآن الكريم الحديث لمن غفل عن النظر فى نفسه ، وفى ملكوت الله ، وفيما أنعم عليه من طيبات ما أخرجته الأرض ، وما سخره الله له من الحيوانات ، فتحداه أن يأتى بمثل ما أنعم الله به عليه ، أو يخلق أدنى الأشياء ، فقال : **« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ،وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب »**(١١) ••

وقال : **« والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون »**(١٢) ••

● لكن من الناس من يرى أن وجوده ووجود هذا الكون حدث بطريق الصدفة ، فكيف نثبت لهم خطأ اعتقادهم هذا ، ونبين لهم بالدليل الملموس أن للكون خالقا ؟

ـ لقد أثبت العلم الحديث أن الفضاء الكونى فسيح جدا ، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها بسرعة خارقة ، بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى ، ومنها ما يتحرك فى شكل مجموعات • ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذى يدخل غرفتك من النافذة ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير فى الهواء ، فلو استطعت أن تتخيل هذا فى شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشىء عن السيارات والكواكب فى الكون،مع الفرق الهائل المتمثل فى أن ذرات الغبار

---

(٩) يس : ٧١ — ٧٣ •
(١٠) الفرقان : ٤٨ ، ٤٩
(١١) الحج : ٧٣
(١٢) النحل : ٢٠

تتحرك ويتصادم بعضها مع بعض ، ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى ، ولا يقترب منه ، ولا يتصادم معه • فالعقل السليم حين ينظر الى هذا النظام العجيب والتنظيم الدقيق ، لا يلبث أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائما بنفسه ، بل ان هناك طاقة غير عادية هى التى تقيم هذا النظام العظيم ، وتهيمن عليه ، وتتحكم فيه ، وسيصل فى نهاية تفكيره أن هذه الطاقة عاقلة مريدة ، ولا تكون الا الله سبحانه وتعالى ، العليم ، الخبير ، فالق الكون وأسراره •

أضف الى هذا أن هناك أمورا كثيرة تؤكد وجود الله سبحانه وتعالى : وما كشفه العلم حتى الآن ، هو قليل من كثير ، وكل ما يمكن للانسان أن يعبر به عن آلاء الله ونعمه ، لا يكون سوى غاية فى النقص ، فمهما فصل وأسهب فى شرح أسرار الكون ، فلن يبلغ ذرة من محيط ، وصدق الله اذ يقول : « **ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** »[١٣] ••

وقوله : « **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** »[١٤] ••

وقد شعر بوجود الله علماء كثيرون ، وصلوا الى ايمانهم عن طريق ما تكشف لهم من صفحة الكون ، فهذا عالم الطبيعة الأمريكى « جورج ايريل ديفس » يرد على هؤلاء الذين يزعمون أن الكون خلق نفسه فيقول : « لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فان معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق ، وفى هذه الحالة سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الاله••

وهكذا ننتهى الى التسليم بوجود اله ، ولكن الهنا سوف يكون عجيبا ، الها غيبيا وماديا فى آن واحد • اننى أفضل أن أومن بذلك الاله الذى خلق العالم المادى وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ، ومديره ، ومدبره بدلا من أن أتبنى هذه الخزعبلات » •

* * *

---

(١٣) لقمان : ٢٧ (١٤) الكهف : ١٠٩

٢ ـ حقيقة الدين

ينبغي أن نتحدث عن كلمة الدين ، ونبين معناها ، لأن فريقيا من الناس يرى :

أن كل معتقد يسمى دينا .

وآخرون يرون :

أن يقصر معنى الدين على الرسالات السماوية ، فيقولون :

الدين هو ما نزل من السماء كاليهودية والمسيحية والاسلام ، وما عدا ذلك فليس بدين ، وعندما فتحت القواميس لأبحث عن معنى كلمة الدين ، لم أخرج منها بشيء مقنع . ذلك أنى وجدتها تنص على أن الدين : هو الملة ، والملة : هى الدين .

وعليه فلو تتبعنا استعمالات كلمة الدين فى اللغة ، لوجدنا أنها متعددة المعانى : اذ يطلق الدين ويراد منه : الجزاء ، ومنه قوله تعالى : « **مالك يوم الدين** »(١) ..

أى يوم الجزاء وهو يوم القيامة .

ويطلق ويراد منه : الحكم والسلطان ، ومنه قوله تعالى : « **ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك** »(٢) ..

أى ليأخذ أخاه فى حكم الملك وسلطانه .

كما يطلق على العادة ، كقول الشاعر :

تقول وقد درأت لها وضينى ... أهذا دينه أبداً ودينى

أى عادته وعادتى .

وكذلك يطلق ويراد منه الطاعة والانقياد ، يقال : دان له دينا وديانة ، أى خضع وأطاع .

ويطلق ويراد به ما يدين به الانسان ، يقال : دان بكذا ، أى اتخذه دينا ، وتعبد به .

---

(١) الفاتحة : ٤

(٢) يوسف : ٧٦

فهذه اســتعمالات خمســة وهى : العادة ، والطاعة ، والحكم ، والجزاء ، وما يدين به الانسان ، فاذا قلنا : ان الدين هو ما يدين به الانسان ، أى يعتنقه فليس معنى هذا : أن المعانى الأخرى غير داخلة فيه ، اذ لو تدبرناها لوجدنا أنها داخلة كلها فى هذا المعنى ، لأن من يدين بدين تصبح تعاليمه عادة له ، ويطيع من شرع هــذا الدين ، ويخضع لسلطانه ، ويرجو منه الجزاء ، فأنت ترى المعانى الخمسة هى عناصر لكلمة الدين ، بمعناها المشهور •

● فهل يكون كل اعتقاد ضم هــذه المعانى دينا ؟

ــ للاجابة على هذا السؤال ، ينبغى أن نتناول الموضوع من جانبين :

الأول : معنى الدين عند علماء الأديان ••

والثانى : بيان العنصر الذى يفصل الدين عن العقائد التى لا تسمى دينــــا •

أما فى الجانب الأول ، فقد عرف بعض علماء الأديان الدين بأنه : وضع الهى سائق لذوى العقول ــ باختيارهم اياه ــ الى الصلاح فى الحال ، والفلاح فى المآل ، وهو يشمل العقائد والأعمال •• فهذا التعريف لا ينطبق الا على الأديان السماوية : كاليهودية ، والمسيحية ، والاسلام •

أما غيرها من المعتقدات التى لا صلة لها بالسماء ، واصطلح الناس على تسميتها دينا ، فلا يسميها هؤلاء العلماء دينا ، لأنها فى نظرهم تشريعات أرضية تنسب الى البشر ، ولا صلة لها بالله سبحانه وتعالى ، والدين لا بد أن يكون منزلا من الله العلى القدير •

ويرى فريق آخر من العلماء أن الدين : هو عبارة عن الايمــان والعبادة مهما كانا ، فايمان الوثنيين دين ، وايمان البوذيين دين ، وايمان البرهمانيين دين ، وكل عقيدة تشتمل على الايمان بقوة أو قوى ســائدة تحكم الأرض وتلزم أتباعها بالخضوع لهذه القوة وعبادتها فهى دين ، ومعنى هذا أن الدين عند هؤلاء يشمل الاديان السماوية ، وغير السماوية ، أى التى وضعها البشر ولا تمت الى الله بصلة • واســتدلوا بآيات من

القرآن الكريم كقوله تعالى : « **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** »(٣) ..

فقد أطلق الله فى هذه الآية الدين على العقائد الباطلة ، كما أطلق على ما كان عليه كفار قريش من الاعتقاد والاوثان دينا ، فقال تعالى موجها الخطاب لهم : « **لكم دينكم ولى دين** »(٤) ..

وأرى أنه لا يوجد خلاف جوهرى بين الفريقين ، ذلك أن الفريق الأول عندما حصر معنى الدين فى اليهودية والمسيحية والاسلام ، كانت نظرته الى كلمة الدين نظرة خاصة ، اذ أنه أراد بذلك الدين الموحى به من السماء .

أما الفريق الآخر فينظر الى الدين نظرة عامة .. أى كل ما يشمل الاعتقاد فى قوة ، وخضوع لتلك القوة ، وعبادة لها ، سواء أكان مصدرها السماء ، أو كان منبعه الأرض .

وعندما يريد هذا الفريق تخصيص المعنى ، فانهم يقولون : هذا دين حق ، وهذا دين باطل ، فالكل عندهم دين ، لكن يضاف اليه ما يبين خصائصه ، من كونه دينا سماويا ، أو دينا وضعيا ، ويوضح الحكم عليه بكونه دينا حقا أو دينا باطلا .

ويجب أن نضم الى العناصر المكونة للدين عنصر الاعتقاد بالذات الغيبية الروحية المتصلة معنويا بعابديها ، لنخرج المعتقدات فى الفكر الفلسفى المعاصر عن دائرة الدين ، فالشيوعية والوجودية وغيرهما من أنواع المعتقدات الفلسفية لا تسمى دينا ، لأنها لا تؤمن الا بالمشاهد المحسوسة ، والدين لابد فيه من الاعتقاد فى قوة غيبية غير مشاهدة .

نريد أن نقول : ان كل مذهب أو اتجاه عقدى لا يؤمن بالقوة الغيبية لا يسمى دينا ، وبذلك يظهر أمامنا أنواع ثلاثة :

دين سماوى ..

ودين وضعى ..

ومذهب حسى ..

---

(٣) آل عمران : ٨٥ .

(٤) الكافرون : ٦

فهذا الأخير ، وأن أطلق البعض عليه عقيدة ؛ الا أنه لا يدخل فى دائرة الدين ، فلا يسمى دينا •

● هناك كلمتان مرتبطتان بالدين ، وهما :

الملة والنحلة • ألست ترى معى أنه لا بد من بيان معناهما حتى تكتمل الفائدة ؟

— نعم : تطلق كلمة الملة ، ويراد بها — طبقا لما جاء فى معاجم اللغة — : الشريعة ، أو الدين ، كملة الاسلام والنصرانية واليهودية •

اذن فالملة تطلق على الأديان المنزلة ، فيقول الراغب الأصفهانى :

« الملة : اسم لما شرعه الله لعباده على لسان الأنبياء ، ليتوصلوا به الى جوار الله ، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف الا للنبى عليه السلام ، الذى تنسب اليه ، نحو قوله تعالى : « **ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم** »[٥] ••

وقوله : « **واتبعت ملة آبائى** »[٦] ••

ولا تكاد توجد مضافة الى الله ، ولا تضاف الى آحاد الناس ، ولا تستعمل أيضا الا فى جملة الشرائع ، دون آحادها ، فلا يقال : ملة الله ، كما لا يقال : ملتى أو ملة زيد ، بالعكس يقال : دين الله ، ودين زيد •

وتطلق النحلة ويراد بها : ما انتحل من الدعاوى ، فيقال : انتحل فلان كذا ، أى ادعاه وهو لغيره • ويتضح من هذا : أن مدلول الكلمة يشير الى الكذب والانتحال الذى لا أساس له من الصحة • وتلك هى طبيعة النحل والعقائد التى تتنكر لآيات الله وتكفر برسله ، فكل دعوة هذا شأنها يطلق عليها : نحلة ، لأن ما تدعيه من انكار لله ولرسله ، هو كذب وافتراء •

وقانا الله شر هذا الاتجاه وهدانا الى دينه الحق •• دين الاسلام •• انه سميع مجيب •

* * *

(٥) النحل : ١٢٣ •   (٦) يوسف : ٣٨

٣ — ما هو الاسلام

● ألاحظ أن كلمة الاسلام تستعمل فى عبارات وتراكيب لغوية مختلفة ، وأفهم من كل عبارة معنى لها يخالف معناها فى العبارة الأخرى ، فهل تدل كلمة الاسلام على معان متعددة ، بمعنى أنها تستعمل استعمالات مختلفة ، فيكون معناها فى استعمال يخالف معناها فى الاستعمال الآخر ، أم أن بين الاستعمالات المتعددة جانبا مشتركا ؟ .

— اذا أردت أن تبحث عن معنى كلمة ما ، فلا بد أن تلاحظ استعمال الفعل المشتق منها ، فالفعل من كلمة الاسلام هو : أسلم يسلم ، ومعناها : انقاد ، فتقول : أسلمت وجهى لله ، أى أطعت الله ، أو انقدت لأمر الله ، فالاسلام على هذا النحو هو : الانقياد والخضوع والطاعة لله سبحانه وتعالى ، يقول القرآن الكريم ، حكاية عن ابراهيم عليه السلام : « **ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين . اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين** »[1] .

● اذا فهم الاسلام على أنه الخضوع والانقياد والطاعة ، فلربما يتبادر الى الذهن أنه يدعو الى أن يكون المسلم متواكلا ، لأن معنى كلمة الانقياد : هو التسليم بما يجرى ويحدث ، دون الاعتراض ، ودون محاولة التأثير على مجرى الأحداث ، وهو ما يسمونه بالجبرية ، أى أن الانسان خاضع للمشيئة ، دون محاولة التأثير على مجرى الأحداث ، فهو كريشة معلقة فى الهواء ، اذ تسيرها الريح حيث شاءت ، فالمسلم قد استسلم للأحداث بانقياده ، فلا يتدخل فى تغييرها ، وذلك ما يلاحظ عند عامة المسلمين ، فهم متواكلون ، بل متكاسلون ، فاذا حاولت دفعهم الى العمل قالوا لك : « خليها على الله ، ما كان لك سوف يأتيك » ، ألا يكون سبب هذه السلبية ، هو ما يفهم من كلمة الاسلام من أنه هو الانقياد والخضوع المطلق ؟ .

---

(١) البقرة : ١٣٠ ، ١٣١ .

ـ يخطىء من فهم أن الاسلام يدعو الى الكسل أو السلبية ، فانه يحث على العمل والمثابرة ، يقول الله تعالى : « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورســوله** »(٢) ..

ويقول : « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » (٣) ..

ولو أحصيت لك الآيات التى وردت فى القرآن الكريم فى معرض الحث على العمل ، وجزاء العاملين ، لضاق بنا الوقت ، وهذا يدل على أن الاسلام لا يحب أن يكون المسلم سلبيا ، بل يدفعه دفعا الى العمل ، ويعده بثواب على أعماله الطيبة .

● لا يوجد أدنى اختلاف على أن الاسلام يدعو المسلمين الى الاكثار من الأعمال الطيبة فى مجالات العبادات من ذكر وتسبيح وصلاة وغــير ذلك ، ولكن الخلاف فى الأعمال الدنيوية ، أى فى السعى الى ما يعــود على الانســان بالخير المــادى ، فكثير من المســلمين يلتزمون بــأداء العبادات ، ويتواكلون فيما يعود على المجتمع بالرفاهية ، والتقــدم الحضارى ، اعتقادا بأنهم سوف ينالون ذلك فى الآخرة ، أما فى الدنيا فلا بأس عليه أن يعيش فقيرا محروما ، ولذلك تسمع كثيرا منهم يقول : « لنا الآخــرة » أى أنه وان فاتته الدنيا بسبب كسله وتواكله ، فسينال فى الآخرة ما حرم منه فى الدنيا .

ـ هناك نقطتان ينبغى أن نلاحظهما جيدا وهما :

أولا : كما حث الاسلام على العمل فى مجال العبادة ، حث على العمل فى المجال الدنيوى فقال تعالى : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** »(٤) ..

وقال : « **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقــه** »(٥) ..

---

(٢) التوبة : ١٠٥
(٣) النحل : ٩٧
(٤) الجمعة : ١٠
(٥) الملك : ١٥

وقال : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** » (٦) ..

وقال ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم جبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » (٧) .

فهذه النصوص تدل على أن الاسلام ، وان كان معناه الخضوع والانقياد ، الا أنه خضوع لله فقط ، وليس خضوعا للظروف المادية التى تحيط به ، أى أن المسلم لا يجوز له أن يستسلم للعقبات التى تعترض طريقه فى الحياة الدنيوية ، بل عليه أن يتخطاها ، بالاجتهاد ، والمثابرة فى العمل ، الذى يدر عليه وعلى أولاده رزقا يعيشون منه ، وفى ذلك أيضا فائدة للمجتمع ، لأنه بانتاج أبنائه يقوى على مواجهة التيارات المعادية له .

النقطة الثانية التى ينبغى أن نلاحظها : هى أن الخضوع لله يتطلب تلقائيا العمل ، والجد فى الأعمال الدنيوية ، لأن معنى الخضوع لله أن تنفذ كل ما أمرك به ، وقد أمرك بالسعى على الرزق ، والعمل بجد فى مجال الانتاج لتقوى الأمة ، فمن يتكاسل فى عمله ، فقد فرط فى جانب رئيسى من جوانب خضوعه لله ، أى أن اسلامه يكون ناقصا ، لأنه لم يقم بما يتحقق به الاسلام .

● اذا كان معنى الاسلام هو الخضوع والطاعة ، فهل كل من خضع لله وأطاعه يعتبر مسلما ؟

— نعم ! .. ولذا قال الله تعالى : « **ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما** » (٨) ..

أى أنه كان فى سلوكه منفذا ما أمر الله به ، طائعا له ، ولم يتبع ما أدخل على دين الله بواسطة الاحبار والرهبان ، فكل انسان سار على هدى الله ، ونفذ ما نزل به الوحى من عند الله يعتبر مسلما ، فيوسف

---

(٦) الأعراف : ٣٢
(٧) البخارى : باب الزكاة .
(٨) آل عمران : ٦٧

عليه الســـلام يقول : « **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنـــى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** »(٩) .

وبلقيس ملكة سبأ تقول : « **رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** »(١٠) ..

● اذن ، فمعنى الاسلام هو أنه دين الله من لدن آدم حتى الآن ؟ .

ــ نعم ! .. فمن لم يؤمن به ، فقد اتبع طريق الشيطان،وسارع الى ما شرعه له الرهبان والأحبار .

● ولكنى أرى أسماء عدة للدين ، فهذه : اليهودية ، وتلك:النصرانية، أليس هذان الدينان أيضا من عند الله ، واذا كان كذلك ، فلماذا سميا بهذين الاسمين ، ولم يسميا الاسلام ؟ .

ــ دين الله هو الاسلام ، لكن اليهود حرفوا فيه ، فجاءت النصرانية على لسان عيسى لتصـــحح ــ وهما فى الأصــل دين الله الذى هو الاسلام ــ ولمـــا حرفت النصرانية ، نزل الوحى على سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، ليبلغ الناس دين الله ، الذى هو الاسلام . فمن لم يؤمن به ، لم يكن مسلما ، وبالتالى لا يكون مطيعا له . يقول الله تعالى : « **ان الدين عند الله الاسلام** »(١١) ..

أى هو ما نزل على محمد ﷺ ، لأنه هو الدين الوحيد ، الذى سلم من التحريف والتبديل ، فهو دين الله من لدن آدم حتى محمد ﷺ .

* * *

---

(٩) يوسف : ١٠١
(١٠) النمل : ٤٤
(١١) آل عمران : ١٩

٤ ــ ما هــو الايمــان

● تحدثنا عن الاسلام ، فبينا أنه هو الخضوع والانقياد والطاعة لله ، وشرحنا أن هذا المعنى لا يكون سببا فى أن يتواكل المسلم أو يتكاسل ، لأن الاسلام يحث على العمل ، سواء أكان فى مجال العبادة ، أو كان متعلقا بالمسائل الدنيوية ، من تجارة ، وزراعة ، وصناعة ، وغير ذلك . ولكن بقى جانب آخر يبدو غير واضح ، وهو أنه ورد فى الحديث الشريف أن النبى ﷺ قال : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » .. فهل اذا فعل المسلم هذه الاركان الخمسة فقط يعتبر مسلما ؟ .

ــ نعم ! .. لأن هذه الأركان ، اذا أديت تدفع بمن يؤديها الى أن يفعل الخير ، ويتجنب كل أعمال الشر ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة تربى فى المسلم غريزة حب الخير والعطف على المحتاجين ، والصوم يهذب أخلاق المسلم ، فيحرره من غرائز الشهوات الجسمانية ، والحج يعمق فى قلوب المسلمين الشعور بالوحدة ، وفوق هذا كله فالشهادة تحرر المسلم من سيطرة البشر عليه فهو لا يخضع الا لله .

● اذا كان المسلم يتصف بهذا كله ، أو تنفيذه لهذه الأركان يؤدى الى أن يكون مسلما مطيعا لله ، منفذا تعاليمه ، فلماذا قال الله فى كتابه الكريم ردا على الأعراب الذين جاءوا يعلنون ايمانهم للنبى ﷺ ، بأنهم ليسوا مؤمنين بل مسلمين فقال : **« قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم »** [1] ..

فهل الايمان غير الاسلام ؟

ــ يجب أن نعرف أن الاسلام هو الخضوع والانقياد الظاهرى ، فان صاحبه تصديق بالقلب ، يكون اسلاما صحيحا لأن الايمان هو التصديق

---

(١) الحجرات : ١٤

بالقلب ، والتعبير عنه باللسان ــ كأن ينطق المرء بالشهادتين ، أو يتلو القرآن ــ أو بالعمل ــ كأن يقوم بأداء العبادات ــ انما هو علامة على ما فى القلب من الايمان ، فان كان هذا التعبير صدى لما فى القلب من ايمان ، كان اسلاما حقيقيا ، والا فيكون تظاهرا فقط ، كما كان حال المنافقين ، فقد تظاهروا بالاسلام ، ولم يدخل الايمان قلوبهم ، كما هو الحال مع الأعراب الذين تحدثت عنهم الآية ، فقد جاءوا خاضعين ، ولكن لم يكن الايمان قد دخل فى قلوبهم بعد •

ولهذا لا يمكن الحكم على انسان أنه مؤمن أو غير مؤمن ، لأن ذلك الأمر يتعلق بالقلب ، ولا يطلع عليه الا الله سبحانه وتعالى ، وانما نقول : فلان مسلم •• وهذا هو السبب فى شيوع استعمال كلمة : « المسلمون » وقلة استعمال كلمة : « المؤمنون » فاطلاق الايمان على المسلمين ، لا يكون الا من الله الذى يعلم ما فى القلوب • ومن هنا جاء تعبير « **الذين آمنوا** » فى القرآن الكريم • أكثر من مائتى مرة ولم يأت تعبير « **الذين أسلموا** » الا مرة واحدة حيث يقول الله « **انا أنزلنا التوراة فيها هــدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أســلموا للذين هادوا** (٢) ••

أى يحكم بها الذين أطاعوا الله ، ولم يسيروا وراء شريعة وضعها البشر للمجتمع اليهــودى •

● اذن ، فالايمان هو تصديق بالقلب ، والاســلام نطق باللسان ، وعمل يقوم به العبد تنفيذا لمــا جاء به القرآن الكريم • وقد يكون هذا العمل ظاهريا فقط ، كما كان حال المنافقين ، أى تظاهروا أمــام المؤمنين بأنهم آمنوا ، ولم يدخل الايمان قلوبهم ، وقد يكون معبرا تعبيرا صادقا عما فى القلب من ايمان ، فكيف نفرق بين العملين ؟

ــ من الصعب جدا التفريق بين عملين : عمل قام به صاحبه تظاهرا ، وآخر نابع حقيقة من القلب ، فذلك لا يقدر عليه الا العليم بأسرار

---

(٢) المــائدة : ٤٤

القلوب ، وهو الله سبحانه وتعالى ، لكن المرء غالبا ما يلحظ ـ ان واتته الظروف ، أو كان ملازما للشخص فى جميع الأوقات ـ صدق العمل الذى يقوم به صاحبه ، وذلك اذا كان سلوك الشخص طبقا لما يظهره ، من تقوى ، وحرص على تأدية العبادات .

وتوضيحا لهذين المعنيين للاسلام والايمان ، وصف ما يتعلق بالقلب بأنه الايمان ، وما يظهر على الجوارح بأنه الاسلام ، فيقول الله تعالى فى وصف المؤمنين : « **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** » (٣) ..

لأن التصديق لا يتحقق فى هذا الا بالقلب ، فسمى ايمانا .

أما ما له جانب ظاهرى فقد وصف بالاسلام ، فقد جاء فى حديث رسول الله ﷺ ، حين سأله جبريل عن الاسلام قوله : « الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا » ، فالنطق بالشهادة له جانب ظاهرى ، وكذلك الصلاة والصوم والزكاة والحج .

اذن ، فالاسلام هو ما يتعلق بالظاهر ، والايمان : هو ما يتعلق بالقلب ، وان كان الاسلام لا يكون صحيحا الا اذا كان مصاحبا للايمان بالقلب ، فان انتفى الايمان بالقلب أصبح العمل الظاهرى نفاقا ، وليس اسلاما ، ولا يطلع على هذا الا الله ، لأنه أعلم بالقلوب ، ولذلك لا يصح أن ننفى الايمان عن مسلم التزم بأداء الاعمال الظاهرية ، فنصفه بالكفر ، أو النفاق ، لأن هذا خارج عن قدرتنا ، والأولى أن نطلق عليه وصف مسلم فقط .

أما وصف المؤمن فندعه لله سبحانه وتعالى ، فهو وحده الذى يعلم ما فى قلبه .

* * *

---

(٣) البقرة : ٢٨٥

٥ ـ الوحـــــى

حدثنا عمر با الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ، اذ أقبل رجل ، شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، ما يرى عليه أثرا لسفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فأقبــل حتى جلس بين يــدى رسول الله ﷺ وركبته تمس ركبته ، قال : يا محمــد •• أخبرنى عن الاسلام ! فقال رسول الله ﷺ : « تشــهد أن لا الـــه الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا » ، قال : صدقت •• فتعجبنا من سؤاله وتصديقه • ثم قال : فما الايمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وحــده وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، والجنة والنار ، وبالقدر : خيره وشره » • فقال : صدقت • ثم قال : فما الاحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » قال:صدقت • قال : فأخبرنى عن الساعة ! فقال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » • قال : صدقت • قال : فأخبرنى عن أماراتها ! قال : « أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى العراة الحفاة ، رعاء الشاة ، يتطاولون فى بنيان المدر » ؛ قال : صدقت • ثم انطلق ، فلبثنا مليا ، ثم قال رسول الله ﷺ : « ياعمر •• هل تدرى من الرجــل » ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم • قال : « ذاك جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم ، وما أتانى فى صورة الا عرفته فيها ، الا فى صورته هــذه » [١] • •

فهذا الحديث يشتمل على أربع مسائل ، وهى : الاسلام ، والايمان ، والاحسان ، وأمارات الساعة • وقد تحدثنا عن اثنتين منها ، وهمــا الاسلام،والايمان••ولا أريد أن نتحدث الآن عن الاثنتين الباقيتين ،وهما: الاحسان وأمارات الساعة ، لأن الحديث عن الاحسان ، سيأتى عندمــا نتحدث عن الأخلاق ، وحديث الساعة سيأتى عندما يحين الكلام عن السمعيات ، ولكن ما أريد معرفته الآن هو : من هو جبريل ؟ •

---

(١) البغوى جـ ١ ص ٩ •

جبريل لفظ سرياني معناه : عبد الرحمن ، أو عبد العزيز ، فيما رواه ابن عباس ، وهو الملك الذى وكله الله بابلاغ الوحى الى أنبيائه ورسله عليهم السلام ، وقد ورد اسمه فى القرآن الكريم فى ثلاث آيات ، هى قوله تعالى : **« قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه »**(٢) ..

وقوله : **« من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين »** (٣) ..

وقوله : **« وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين »** (٤) ...

ويقول العلماء : ان جبريل هو كبير الملائكة ، ولذا فوض الله اليه تبليغ وحيه الى رسله .

● فما معنى الوحى ؟ :

ـ الوحى فى اللغة : «الالهام» ، ومنه قوله تعالى : **« وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا »** (٥) .. أى ألهم ربك النحل ، بأن يتخذ من الجبال بيوتا .

وقوله : **« واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى »** (٦) أى ألهمتهم الى الايمان .

كما جاء فى قوله : **« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى »** (٧) ..

أى ألهمناها ، بأن ترضعه وتلقيه فى اليم . أما المعنى الاصطلاحى للوحى : فهو ما أنزل على الأنبياء والرسل من تشريعات ليبلغوها الى أقوامهم .

---

(٢) البقرة : ٩٧ .
(٣) البقرة : ٩٨ .
(٤) التحريم : ٤
(٥) النحل : ٦٨ .
(٦) المائدة : ١١١
(٧) القصص : ٧ .

فيقول الله مخاطبا محمدا ﷺ : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده »**(٨) • أى أنزلنا اليك تشريعا ، كما أنزلنا الى نوح والنبيين •• وعليه فالقرآن الكريم : هو الوحى الذى نزل به جبريل من الله ، الى محمد ﷺ ، ليبلغه للناس ، والتوراة : هى الوحى الذى نزل به جبريل من عند الله ، على موسى عليه السلام ، ليبلغه لبنى اسرائيل ، والانجيل : هو الوحى الذى نزل به جبريل على عيسى عليه السلام ليبلغه لبنى قومه ، والزبور هو الوحى الذى نزل على داوود ، وغير ذلك كثير ، لم يقصصه القرآن الكريم علينا ، فقد قال الله لنبيه : **« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله »**(٩) ••

فالوحى هو ما أنزله الله على رسوله بواسطة جبريل عليه السلام ، وأمره بتبليغه ، كما قال الله تعالى : **« قل أى شىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد ، قل انما هو اله واحد واننى برىء مما تشركون »** (١٠) ••

وقوله : **« واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك »** (١١) ••

● ألا يدخل فى معنى الوحى رؤيا الأنبياء التى كانوا يرونها قبل أن يأتيهم الملك بوحى الله ؟

— لا تدخل الرؤيا فى معنى الوحى ، بمعنى أن الأنبياء لم يؤمروا بتبليغ شىء رأوه فى المنام ، كذلك لم تكن الرؤيا طريقا للتشريع ، وانما كانت ارهاصا فقط بقرب الوحى ، فالأنبياء كانوا يرون رؤى قبل تكليفهم بالتبليغ ، وكانت الأحداث تأتى مصدقة لما رأوه ، وهذه فترة تسبق مجىء الوحى الى الرسول • فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم ،

---

(٨) النساء : ١٦٣ •
(٩) غافر : ٧٨ •
(١٠) الأنعام : ١٩ •
(١١) الكهف : ٢٧ •

فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء ، يتعبد فيه الليالى ، حتى جاءه الملك وهو فى الغار ، فقال : اقرأ •• قال : ما أنا بقارىء • قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال : اقرأ •• فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ •• فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ ربك الأكرم** »(*) •فالحديث يخبر بحالتين• الأولى:الرؤيا الصادقة،ولم يبلغنا الرسول ﷺ بما رآه،وبالتالى لم نلتزم بشىء جاء عن طريق الرؤيا ، وان عدت من بواكير الوحى • أما الحالة الثانية : فهى ظهور جبريل له ، واقراؤه أول آية نزلت من القرآن الكريم ، وهذه بلغها النبى ﷺ لأنه مأمور بتبليغ ما جاء به الملك جبريل عن الله سبحانه وتعالى •

اذن ، فالوحى : هـو ما نزل به جبريل من الله الى النبى ﷺ وأمر بتبليغه ، ومن هنا يطلق على القرآن الكريم بأنه وحى الله ، لأنه جاء به جبريل عليه السلام ، الى النبى ﷺ وأمره بتبليغه •

فجبريل هو الواسطة بين الله وبين رسله ، وهو حامل الوحى الى الأنبياء ، تارة يأتى على صورته كملك ، وأخرى يأتى على صورة انسان ، كما جاء فى الحديث السابق • ويسمى « الروح » ، قال تعالى : « **نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربى مبين** » (١٢) •

كما يسمى أيضا روح القدس قال تعالى : « **قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا** » (١٣) ••

● هل هو الروح القدس المعروف لدى النصارى ؟ •

ـ نعم •• ولكن النصارى يعتبرونه أحد أجزاء التثليث ، اذ يعتقدون أنه ظهر للتلاميذ ، وأوحى اليهم ، ولم يكونوا أنبياء ، ويظهر للباباوات ،

(*) العلق : ١ ــ ٣ •

(١٢) الشعراء ١٩٣ ــ ١٩٥

(١٣) النحل : ١٠٢ •

وقد يظهر لأفراد أخرى ، وليسوا بأنبياء ، أما جبريل الذى أطلق عليه أيضا : الروح القدس فى الاسلام ، فهو : ملك خلقه الله كما خلق غيره ، فهو من مخلوقات الله وعباده وقد تحدث القرآن عن الملائكة فقال : **« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون »** (١٤) ٠٠

وقال : **« ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون »** (١٥) ٠٠

وقال : **« وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم »** (١٦) ٠٠

فهم عباد الله ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ولم يظهر جبريل الا لنبى يوحى اليه ، وما يزعمه النصارى من ظهوره لأفراد غير أنبياء ، لا أساس له من الصحة ٠٠

* * *

---

(١٤) النساء : ١٧٢ . (١٥) النحل : ٤٩ .
(١٦) الزمر : ٧٥ .

٦ ــ التفرقة بين المؤمن والكافر والفاسق

● من الكلمات ، التى تتردد كثيرا ، فى مجال الحكم على الانسان ، من جانب سلوكه الدينى ، كلمتا : الكفر والفسوق ، ومشتقاتهما ، فاننا نسمع كثيرا من الناس يحكمون على عمل بأنه كفر ، بينما نرى آخرون يطلقون على نفس العمل فسقاً •• فهل هناك فرق بين الكلمتين ؟•

ــ لكى يتضح معنى هاتين الكلمتين ، يجب علينا أن نضم اليهما : كلمة الايمان ، فالشىء يتميز بضده ، وقد عرفنا أن الايمان ، هو : الاعتراف بوجود الله ، والاقرار والطاعة له ، ويدخل فى هذا تصديق رسله والتسليم بأن له ملائكة ، وأنه أنزل كتبا على رسله وأنبيائه ، وأنه خلق الجنة والنار ، وأنه سيحاسب الناس على أعمالهم التى مارسوها فى حياتهم ، فمن عمل خيرا ، أدخله الجنة ، ومن عمل شرا ، فيزف به الى النار ، ويجمع هذا كله قوله تعالى : « **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله** » (١) •

والكفر : ضد الايمان ، أى من لم يؤمن بالله ، أو أشرك معه الها آخر فهو كافر ، ومن لم يؤمن بالرسل ، فهو كافر ، ومن لم يؤمن بالملائكة أو الكتب المنزلة على رسله ، أو باليوم الآخر ، فهو كافر ، يقول الله تعالى : « **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** » (٢) • •

وقد وردت كلمة الكفر والكافرين فى القرآن الكريم فى آيات عدة ، وكلها تدور حول من لم يؤمن بالله ، أو كذب رسولا من رسله ، أو لم يتبع ما أنزل على رسله ، من عبادات ، وتشريعات ، أو أنكر البعث ، والحساب ، أو الجنة ، أو النار •

● هناك نقطتان تحتاجان لتوضيح ، وهما : الأولى : من آمن برسول،

---

(١) البقرة : ٢٨٥ •

(٢) النساء : ١٣٦ •

وكفر بآخر ، فهل يكون كافرا ؟ • والثانية : اختلف المسلمون فى فهم النصوص الاسلامية فتكونت فرق متعددة نتيجة لهذا الاختلاف ، فهل يصح لفريق أن يحكم على آخر بأنه كافر ، أى يرميه بالكفر ، لمجرد أنه يخالفه الرأى ؟ •

ــ أما ما يتعلق بالنقطة الأولى ، فاعلم أن من آمن برسول ، وكفر بآخر ، فهو كافر ، وقد نص القرآن الكريم على هذا فى قوله تعالى :

« والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » ، أى لا نفرق بين الرسل فى وجوب الايمان بهم جميعا ، فمن آمن بالاسلام لا يكون ايمانه صحيحا ، الا اذا آمن بكل الرسل السابقين على الاسلام ، ممن أخبر بهم القرآن الكريم ، فمن آمن بمحمد ﷺ ، يجب عليه أن يؤمن بعيسى ، وموسى ، وابراهيم ، ونوح ، وكل الأنبياء ، الذين ذكروا فى القرآن الكريم ، لأنه اذا كفر بواحد منهم ، فيكون قد أنكر نصا من نصوص القرآن الكريم ، ومن ينكر حرفا منه ، فهو كافر •• وعليه أيضا فمن يؤمن بموسى ، ولا يؤمن بمحمد ، أو يؤمن بعيسى ولا يؤمن بمحمد فهو كافر ، لأنه أنكر القرآن كله •

وما يتعلق بالنقطة الثانية وهو : الحكم على طائفة من المسلمين بالكفر لمجرد أن لها رأيا ومفهوما يخالف الآخرين ، فلا يصح هذا الحكم الا اذا كانت هذه الطائفة تنكر أصلا من أصول الدين ، كأن تنكر القرآن أو الحديث الصحيح ، أو لا تعترف بفرضية الصلاة ، أو الزكاة ، أو الحج • وما عدا هذا فلا يصح وسمها بالكفر ، بل يمكن أن يطلق عليها لفظ الضلالة ، أو الانحراف عن المفهوم الذى عليه الجمهور ، ان كانت آراؤها متطرفة •

معنى هذا : أن هناك أسسا فى الدين ، تفصل بين الكافر والمؤمن ، وهذه الأسس هى : الايمان بألفاظ القرآن الكريم ، فمن أنكر حرفا ، فقد كفر •• والايمان بحديث رسول الله ، ومعنى ذلك أنه اذا ثبت عن طريق القطع أن الحديث قد قاله رسول الله ﷺ ، وأنكره جماعة لمجرد الانكار ،

فهذا كفر ، لأنه تكذيب لرسول الله ﷺ ، أما اذا أنكرت طائفة الحديث بحجة أنه لم يصح اثبات أن الرسول قد قاله ، فلا تكون كافرة بهـذا الانكار ، لأنها لم تكذب رسول الله ﷺ ، بل كذبت الرواة ، ولهذا لا يصح وصف من ينكر الحديث لعدم صحة سنده بأنه كافر ، كذلك لا يكون كافرا من اعترف بالنص ، وخالف الفهم أو التفسير ، ولذلك يقول الأصوليون عن القرآن الكريم : « قطعى النص ظنى الدلالة » ، أى أن نصه مقطوع به ، فمن أنكر حرفا منه فقد كفر ، وظنى الدلالة أى أن دلالته تختلف من شخص لآخر ، ومن هنا جاء الاختلاف فى التفسير والتأويل . وعليه فكل طائفة داخلة فى دائرة الايمان ، ما لم تخرج خروجا واضحا عن الاسـلام ، ولا يكون هذا الا بانكار نص صحيح ، أو الحكم بابطال شىء معلوم من الدين بالضرورة ، كفرضية الصلوات الخمس ، ووجوب الجهاد فى سبيل الله ، وغير ذلك من الأحكام المجمع عليها بالتواتر ، وما عدا ذلك فالكل مسلم ، وان اختلفت آراؤهم فى التفسير .

وبعد أن أوضحنا كلمة الكفر ، نعود الى كلمة الفسق : ما هى ؟ ومتى تطلق ؟ . وعلى من تطلق ؟

— اعلم أن هذه الكلمة وردت فى القرآن الكريم فى ثلاث آيـات ، هى قوله تعالى : « **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ، ذلكم فسق** »[٣] ..

وقوله : « **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق** » [٤] ..

وقوله : « **قل لا أجد فى ما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله بـه** » [٥] ..

---

(٣) المائدة : ٣ .
(٤) الأنعام : ١٢١ .
(٥) الانعام : ١٤٥ .

فنلاحظ أنها وردت فى الآيات الثلاثة فى وصف الأكل مما حرم الله ، أى أنها أطلقت على فعل المعصية — أى من يفعل ذلك فانه فاسق وان كان فى الوقت نفسه يؤمن بالله ، وهذا يجعلها محصورة فى دائرة المعصية ، فهى وان أطلقت فى الآية الأولى على من يذبح على النصب ويستقسم بالأزلام — وهما من أعمال من لم يؤمن بالله — الا أنه روعى فيها الجانب العملى ، لا الجانب الاعتقادى ، أى أنها تطلق على الانحراف فى السلوك ، فمن يقترف اثما ، يعد عمله هذا فسقا ، فالعاصى يطلق عليه فاسق •

فلو تتبعنا كلمة الفاسق ، التى وردت فى القرآن الكريم ، لوجدنا أنها تأتى غالبا عقب بيان الانحراف فى السلوك ، ومن هنا وصف الله المنافقين بها ، فقال : **« يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون »** (٦) •

وقوله : **« نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون »**(٧) ••

لأن سلوك المنافقين فى تظاهرهم بالالتزام ، بما أمر الله به كان سلوكا منحرفا ، أما اذا وصف الكافرون بالفسق ، فيكون من باب التلازم ، اذ يلزم من كفرهم فى الغالب الأعم انحراف سلوكهم ، لأنهم لم يلتزموا بضوابط تمنعهم من الانحراف فى السلوك •

اذن ، فالفسق فى الغالب ، وصف للمعصية ، فمن يؤمن بالله ويعصاه، فهو مؤمن فاسق ، وقد يطلق لفظ الفسق على الكافرين ، باعتبار أن كفرهم يبعدهم فى الغالب عن الالتزام بقواعد السلوك التى فرضها الله على المؤمنين •

● وردت فى القرآن الكريم ثلاث آيات مضمونها واحد ، وهو عدم الحكم بما أنزل الله ، غير أن وصف من لم يحكم بما أنزل الله جاء مختلفا فى الآيات الثلاث ، فهو كافر مرة ، وظالم أخرى ، وفاسق فى الثالثة ، وهذه الآيات هى قوله تعالى : **« انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما**

---

(٦) التوبة : ٨ •

(٧) التوبة : ٦٧ •

استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شــهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٨) •

وقوله : « **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون • وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين • وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »**(٩) ••

فلماذا اختلف الحكم ، مع أن العمل واحد فى الثلاثة ، وهو عـــدم الحكم بما أنزل الله ؟ •

— ليس العمل فى الآيات الثلاث واحدا كما تصورت ••

اذ أن الآية الأولى : تتحدث عمن ينكر ما أنزل الله ، بدليل أنــه قال : « **ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا** » ، أى لا تنكروا ما أنزل الله ، ابتغــاء عرض زائل •

أما فى الآية الثانية : فالأمر يتعلق بارتكاب معصية ، اذ الحاكم مؤمن بما أنزل الله ، ولكنه حاد عن الطريق العدل ، فلم يجعل الســن بالسن والعين بالعين •• الخ فهو لم ينفذ مبدأ من مبادىء القوانين ، بل حكم بشىء آخر ، فخرج بذلك عن اطار العدالة الالهية ، ولهذا كان ظالما فى الحكم ، ولم يكن كافرا لأنه آمن بالتوراة كتابا من عند الله ، وترك تطبيق ما جاء فيها من أحكام •

أما الآية الثالثة : فتتعلق بالسلوك ، ذلك أنه ذكر فيهــا الهدى والنور والموعظة ، وكلها أمور أقرب الى السلوك منها الى الاعتقــاد ،

---

(٨) المائدة : ٤٤ .

(٩) المائدة : ٤٥ — ٤٧

ومن ينحرف فى الحكم على السلوك يعد فاسقا ، مثل من ينحرف فى السلوك نفسه ، ومن يستحسن المعاصى يعد فاسقا ، مثل من يرتكبها ، فوصف من لم يحكم بما فى الانجيل ، بأنه فاسق جاء من ناحية أن الانجيل جاء بمواعظ وأخلاق ، ولم يأت بأحكام ، لأن ما فى التوراة كان ملزما ، لمن يؤمن بالانجيل ، فمَن لم يطبق ويجعل ما فى الانجيل مقياسا للحكم على السلوك ، فهو فاسق .

* * *

obeikandl.com

٧ — علم الله وارادتـــه

ذكرنا عند الحديث عن العناصر ، التى تميز الدين عما عداه ، من المعتقدات ، والايديولوجيات ، أنه لا بد فيه من الاعتقاد فى قوة غيبيـــة ، لهـــا اتصال معنوى بعابديها .

هذا فيما يتعلق بالدين عموما .

أما ما يتعلق بالاسلام خاصة ، فينبغى على المؤمن : أن يؤمن بأن لله صفات الكمال كلها ، فمما يجب الايمان به :

الاقرار بأن الله قديم أزلى ، وأن له البقاء وحده ، كما نص على ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **هو الأول والآخر** »[1] ..

وقوله : « **كل من عليها فان . ويبقى وجـــه ربك ذو الجـــلال والاكرام** »[2] ..

كما ينبغى أن يؤمن بأنه : « سميع بصير » .. يقول الله تعالى : « **ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير** » [3] ..

« وأنه عليم » .. يقول الله تعالى : « **وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، ان الله بكل شىء عليم** » [4] ..

وأنه مريد . يقول تعالى : « **انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** »[5] ..

ويقول : « **ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد** » [6] ..

فاذا كان الاله فى بعض الأديان من جنس الطبيعة ، أو كان قـــوة انقطعت صلتها بالعالم ، أو كان عاجزا عن ادراك ما يجرى فى الكون ، فان الاله فى الاســـلام هو : الله ، خالق الكون ، ومدبره ، ومتصـــل بـــه

---

(١) الحديد : ٣ .
(٢) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) الحج : ٦١ .
(٤) التوبة : ١١٥ .
(٥) يس : ٨٢ .
(٦) البقرة ٢٥٣ .

اتصـــال تدبير ورعاية ، وهو متصف بكل كمال ، فهو : قادر ، عليم ، سميع ، بصير ، مريد ، وليس اتصافه بهذه الصفات يجعله شـــبيها بالانسان •

لا •• فهو ليس كمثله شيء •

من الأمور المسلم بها ، أنه لا يوجد تشابه بين الله والانسان ، فان وصف بصفة وصف بها الانسان ، فليس معنى هذا أنه شبيه له ، أو مثيل ، لأن صفة الله غير صفة العبد ، فصفة الله : هى الكمال ، وصفة العبد : شيء ممنوح من الله للعبد ، ليستعين به على مواجهة الحياة ، غير أن هناك صفتين تحتاجان الى توضيح ، لأن لهما اتصال بعمل العبد ومسئوليته ، وهاتان الصفتان هما :

العلم والارادة •• أو المشيئة •

فعلم الله علم كامل شامل ، يحوط ما فى الكون من مخلوقات ، سواء أكانت جمادا ، أو نباتا ، أو حيوانا ، لأنه خالقها ، فلابد أن يعرف دقائق ما خلق • وذلك أمر مسلم به فى الحياة العادية ، فان من يخترع آلة لا يشك أحـــد فى أنه يعرف كل جزء فيها ، مهما كانت معقدة ومتشابكة فى تشغيلها ، فان كان هذا هو الشأن فى العلم المكتسب ، لأن المخترع اكتسب القدرة على الابداع فى مجال تخصصه ، عن طريق الدراســة والتفكير والتجربة ، والخبرة الطويلة ، فما بالك بمن علمه صفة لازمة له ، وخلق الكون من غير مثال ، ولا نموذج يحاكيه • وانما هو من قدرته وعلمه ، فلا بد من التسليم بأنه يعلم كل جزيئة من جزيئات هذا الكون مهما صغرت • • أو توارت عن الأعين فى طيات الملايين من مثيلاتها •

وقد أخبرنا الله عن احاطة علمه بالكون ، فى القرآن الكريم فى آيات عدة نذكر منها قوله تعالى : « **قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض ، وهو السميع العليم** »(٧) • •

وقوله : « **ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ، ان ذلك فى كتاب ، ان ذلك على الله يسير** »(٨) ••

---

(٧) الأنبياء : ٤ •

(٨) الحج : ٧٠ •

وقوله : **« قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض »**[٩] ..

وقوله : **«قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله»**[١٠] ..

وقوله : **« ان الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون »**[١١] ..

وقوله : **« يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أين ما كنتم ، والله بما تعملون بصير »** [١٢] ..

وقوله : **«ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض»**[١٣] ..

وقوله : **« يعلم ما فى السموات والأرض »** [١٤] ..

وغير ذلك من الآيات التى توضح : أن علم الله محيط بالكون كله ، فهو يعلم ما يجرى فى السماء ، وما يحدث فى الأرض ، وما يسر به الانسان ، وما يدور خلف الكواليس ، والحواجز ، مما يدل على أن علمه ، لا يخضع للقوانين البشرية المعروفة ، بل هو فوقها ، لأنه هو الذى خلقها .

ولهذا فهو وحده يعلم الغيب ، اذ لم يمنح أحدا القدرة على علم الغيب اطلاقا الا ما أخبر به أنبيائه .

وقد نص على هذا فى القرآن الكريم حيث يقول : **« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا »** [١٥] ..

ومن الآيات الدالة على علمه الغيب ، سواء أكان فى صدور الناس ، وفى نفوسهم ، أو كان مطويا فى باطن الأرض ، أو محجوبا بين الكواكب العلوية قوله تعالى : **« قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »**[١٦] .

---

(٩) الفرقان : ٦ .
(١٠) النمل : ٦٥ .
(١١) الحجرات : ١٨ .
(١٢) الحديد : ٤
(١٣) المجادلة : ٧ .
(١٤) التغابن : ٤ .
(١٥) الجن : ٢٦ — ٢٨ .
(١٦) البقرة : ٣٣ .

وقوله : ((**ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب**))[١٧] ..

وقوله : ((**الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة**))[١٨] ..

وقوله : ((**ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء**))[١٩] ..

وينبغي أن نضع نصب أعيننا هذه الآيات ، وخاصة ما يتعلق منها باستئثار الله بعلم الغيب ، ذلك أن كثيرا من الناس قد ينساها أو يهملها ، عندما يقابل شخصا يدعى له أنه يقرأ الغيب ، أو يكشف المستور في مستقبله ، اذ ما يلبث المرء ازاء هذا الموقف ، أن يصدقه ، فيستمع اليه ، وينسى أن الله لم يعط علم الغيب لأحد على الاطلاق ، كما جاء في القرآن الكريم ، الا أن يكون نبيا ، وحتى النبي لا يطلعه على الغيب كله ، بل بمقدار ما أمر بتبليغه فقط .

اذن ، فمن يدعى علم الغيب فهو كاذب !!! .

● ولكننا نرى أن بعض الناس ، يخبر بشيء حدث في مكان آخر ، ألا يعد هذا اخبارا بالغيب ؟ .

— يجب أن نفرق بين شيئين : حدث وقع بالفعل ، ولكنه في مكان آخر ، بعيد عن المخبر به ، وهذا ممكن لبعض الناس — الذين أوتوا قدرة روحية خاصة — الاخبار ببعضه ، وليس كله ، أو الاخبار بأجزاء متناثرة منه ، لا تعطى صورة كاملة عنه ، وهذا ما يسمونه : « التخاطر » ، ومعناه : اتصال روح بأخرى ، بطريقة ما ، خارجة عن النطاق العادي ، ويطلقون عليه : « التلباثي » وهذا لا يسمى اخبارا بالغيب ، لأن الحدث وقع فعلا ، والمخبر لا يستطيع اخبارنا بجزئياته ، وانما يعطى اشارات عنه ، ويحتمل أن تكون خاطئة ، حتى وان كانت صحيحة فهي لا تعطى صورة كاملة عن الحدث ، أما الاخبار بما سيحدث ، فلا يمكن لأحد

---

(١٧) التوبة : ٧٨ .
(١٨) الرعد : ٨ ، ٩ .
(١٩) ابراهيم : ٣٨ .

مهما كانت قدرته الروحية ، أن يخبر به ، لأن ذلك مما استأثر الله بعلمه ، فلم يمنح أحد القدرة عليه •

اذن ، فمن يخبر بالمستقبل فهو كاذب ، ومن يدعى الاخبار بما حدث فى مكان آخر ، فلا يؤخذ كل ما يقوله على أنه صورة طبق الأصل لما حدث ، لأنه ان كانت روحه تقدر على ذلك ، فلن تقدر على نقل صورة كاملة للحدث ، والأولى ألا نصدقه لأن كثيرا من الدجالين يمارسون هذا العمل للكسب عن طريق الحرام •

وما يعرف فى عالم الفلك بالتنبؤات الجوية ، فليس من الاخبار بالغيب ، لأنه استنتاج لظواهر طبيعية مترتبة على ظواهر أخرى ، موجودة فعلا ، ومعروف بالتجربة ما يترتب عليها ، ونكتفى بهذا القدر •• على أن نعود الى الحديث مرة أخرى لنستكمل بيان ما بقى ، وهو علاقة الارادة الالهية بأفعال العباد •

* * *

obeikandi.com

٨ — عمل الانسان وعلاقته بعلم الله وارادته

بعد أن انتهينا فى الحديث السابق ، الى أن علم الله كامل ، يشمل ما حدث وما سيحدث ، يجب أن نبين أيضا أن مشيئته كاملة ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فاذا علم الله بأن شيئا سيحدث ، أراده ، واذا أراده فلابد من وقوعه ، اذ لا يتخلف شيء عن علم الله وارادته ، ولا يقع فى هذا الكون الا ما يريده الله سبحانه وتعالى ، وهناك آيات كثيرة تدل على هذا مثل قوله تعالى : « **وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين** »(١) ..

وقوله : « **ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله** »(٢) ..

وقوله : « **ولو شاء ربك ما فعلوه** »(٣) ..

وقوله « **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا** »(٤) ..

وقوله : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** »(٥) ..

وقوله : « **ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم** »(٦) .

وقوله : « **من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم** »(٧) ..

فمشيئة الله يترتب عليها وقوع الفعل لا محالة ، فلا يتخلف شيء أراده الله .

لكن لا يصح أن يحتج أحد بهذا لتبرير أعماله ، كما احتج الكفار بذلك فى قوله تعالى : « **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا** »(٨) ..

---

(١) التكوير : ٢٩ .
(٢) الأنعام : ١١١ .
(٣) الأنعام : ١١٢ .
(٤) يونس : ٩٩ .
(٥) الأنعام : ١٢٥ .
(٦) هـود : ٣٤ .
(٧) الأنعام : ٣٩ .
(٨) الأنعام : ١٤٨ .

وقوله : « **وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء** »[٩] ..

وقوله : « **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم ، ان هم الا يخرصون** »[١٠] .

لأن الله ذمهم فى موقفهم هذا ، وأنكر عليهم احتجاجهم بمشيئة الله على ارتكابهم المعصية ، كما ذم ابليس حيث أضاف الغواية الى الله ، حيث قال : « **رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين** »[١١] ..

وقد خاض كثير من الناس فى هذا الأمر ، فاحتجوا بأن علم الله مشيئة لا تتخلف ، ولذا لو أردت أمرا وأراد الله غـيره ، فلن يقع ما أردته ، لأن ما أراد الله واقع لا محالة ، فلا ذنب لمرتكب المعصية ، ولا ينبغى أن يلام من اقترف السيئات ، لأنه منفذ لعلم الله وارادته ، ولم يكن فى مقدوره أن يفعل شيئا آخر .

اذن ، فلا ذنب له ، لأن الله قدر ذلك وأراده ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ويتمادى بعضهم أكثر من هـذا فيقول : ان الله أراد الكفر من الكافر ، والمعصية من العاصى ، ولو لم يكفر الكافر ، ويعصى العاصى ، لتخلفت ارادة الله ، وهذا مستحيل .

وتلك مغالطة لو آمن الناس بصحتها لهدم الدين ، ولارتفع التكليف ، لأن من لم يؤد ما عليه من واجبات ، سيأخذها حجة ضد من يوجه اليه اللوم ، اذ سوف يقول له : لقد أراد الله هذا ، وما أنا الا منفذ لارادته ، وتلك حجة يتعلل بها الزنادقة والجهال ، اذا أمروا بشيء أو نهوا عن شيء آخر ، وقد حدث أن احتج سارق على عمر رضى الله عنه ، بأن الله شاء أن يسرق ، فهو منفذ لمشيئة الله ، فهذا قدر مكتوب عليه ولابد له من تنفيذه ، فليس له اختيار فيه ، فقال له عمر : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره ، فقد شاء الله أن تسرق ، وشاء الله أن أقطع يدك .

---

(٩) النحل : ٣٥ .
(١٠) الزخرف : ٢٠ .
(١١) الحجر : ٣٩ .

ولتوضيح ما يلتبس على الناس من العلاقة بين مشيئة الله ، ووقوع الفعل ، وبيان أن علم الله ومشيئته ليسا سببا فى وقوع الفعل ، نسوق هذا المثل : لو فرضنا أنك كنت فى زيارة أحد أصدقائك ، وبينما كنتما جالسين سمعته يحذر ابنه من الخروج ، واللعب فى الشـــارع ، والا فسوف ينزل به العقاب ، وعندما دخل الابن الى البيت ، وأصبح فى مكان بعيد عن أبيه وعنك ، أسر أبوه اليك ، بأنه ــ أى الطفل ــ لا يمكن أن يســتقر فى البيت أبدا ، فهو يميل دائما الى الخروج واللعب فى الشارع ، لأنه متعلق بالأطفال خارج البيت ، وأنا متأكد تمام التأكد أنه سوف يخرج بعد دقائق معدودة ، وفعلا لم تمر الدقائق ، الا وخرج الطفل ، فهم أبوه بتوقيع العقاب عليه •

فهل يجوز للطفل أن يحتج بأن أباه يعرف ــ نظرا لخبرته بميول الأطفال ــ أنه سوف يخرج ، فهو ينفذ هذا ، حتى لا تتخلف معرفته بهذه الناحية التربوية ، فمعرفته بمثابة أمر له بتنفيذ هــذا العمل ، ولهــذا لا يجوز له أن يعاقبه ؟

بالطبع لا •• لأن علم أبيه بخروجه لا يكون أبدا أمرا له بالخروج ، ولا سببا لخروجه •

فهذا المثل يوضح : أن علم الله ومشيئته ، ليسا أمرا من الله باتيان الفعل ، وليسا رضاء منه عما يقوم به الانسان من كفر ومعصية ، وانمــا ينظر اليه من ناحية أن علم الله كامل ، فهو لا يتخلف ، وقد علم الله أزلا ، أن هذا العبد سيكون من الصالحين المؤمنين ، وأن ذاك العبــد سيكون من الكافرين العاصين ، وعلم ما سيفعله كل منهما ، فأراده ، وكتبه ، وبقى الانسان حرا ، له مطلق الاختيار ، لأنه لا يعلم ما كتب عليه ، ولهذا لم يكشف الله له عما أراده حتى لا يتأثر اختياره ، فهو حر مائة فى المــائة ، فيما يختار ، غاية الأمر أن الله علم مسبقا ما سوف يختاره العبد •• لأن علمه كامل يشمل ما هو كائن وما سوف يكون •

ولقد عاب الله على المشركين ، الذين احتجوا على شركهم ، بأنه أمر

شاءه الله لهم ، لأنهم لم يطلعوا على هذه المشيئة ، فحين اختاروا الكفر ، كانوا أحرارا فيما اختاروا ، فلم يجبرهم الله عليه ، غاية الأمر أنه كامل فى علمه ، والكمال فى العلم يقتضى معرفة ما سيحدث ، والا كان ناقصـــا •

وخلاصة القول : ان علم الله كامل • فهو يعلم ما سيحدث ، ومن ضمن ما سيحدث ، أعمال الناس فأرادها وكتبها ، لأنها لن تتخلف ، وحجب ذلك عن الناس ، حتى لا يتأثروا فى اختيارهم ، فاختاروا فى جو من الحرية أعمالهم ، ولهذا سيعاقبون ، ان ارتضوا الكفر ، ويجازون ، ان اختاروا الايمان ، وعملوا عملا صالحا •

* * *

٩ — التوكـل والتواكـل

أثر مبدأ الايمان بالقضاء والقدر فى الاسلام على بعض الناس ، ففهموا أنه يؤدى الى الاعتقاد ، بأن الانسان مجبر لا مخير ، وظنوا أن المسلم كالريشـة المعلقة فى الهواء ، تقلبها الريح ، كيفما تشـاء ، فلا اختيار له فى قول أو فعل ، بل كل ما يباشره هو قضاء وقدر ، وما قدرته الا آلة فى يد القضاء والقدر ، آلة لا حول لها ولا قوة ، فهى خاضعة لقوة أخرى تسيرها ، كما تخضع الآلة لقوة التيار الكهربائى . وهذا فهم خاطىء لمعنى القضاء والقدر ، ذلك أن الانسان فى الاسلام حر فيما يفعل ، مريد لما يباشر من أعمال ، وما يترك من سـلوك واتجاهات .. يشهد بذلك قول الله تعالى : **« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام العبيد »**[1] .

وقوله : **« من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صـالحا فلأنفسـهم يمهدون »**[2] ..

ولا تكون هذه المسئولية الا اذا كان حرا فى تصرفاته ، لا يخضع لأى تأثير خارجى عنه عندما يختار الكفر ، أو يفضل الايمان ، والعمل الصـالح .

والايمان بالقضاء والقدر من أهم الاسباب ، التى تدفع المؤمن الى مواصلة العمل ، وتحثه على الجد والاجتهاد ، سواء أكان ذلك فى مجال العبادات ، أو فى آفاق الحياة الدنيوية ، ذلك أن الانسان لا تخلو حياته من كبوات ، فاذا كان مؤمنا بالقضاء والقدر ، دفعه ايمانه الى مواصلة السير ، ومحاولة الاستمرار فى العمل ، بدل أن يجلس نادبا حظـه « مولولا » على ما فاته ، ملقيا اللوم على هذا أو ذاك ، لأن المطلوب منه — طبقا لهذا المبدأ من الاعتقاد فى القضاء والقدر — أن يؤدى واجبه كاملا ، فاذا أخفق ، استمر فى سيره ، لا يلتفت الى وراءه ، الا بقصد معرفة مواطن الخطأ ، حتى يتفاداها فى المستقبل ، وصدق من قال :

---

(١) فصلت : ٤٦ . (٢) الروم : ٤٤ .

« على أن أسعى وليس على ادراك النجاح » ، أى أن الواجب على المؤمن هو السعى الجاد ، أما ضمان النجاح فذلك موكول الى الله تعالى ..

ولبيان الفرق بين من يؤمن بالقضاء والقدر ، ومن لا يؤمن نسوق هذا المثل :

لو أن هناك شخصين يعملان فى مجال ما ، وأخفقا ، أى لم يوفقا فى الوصول الى هدفهما ، أو أصيبا بنكسة ، منعتهما من تحقيق غايتهما ، فان من لم يؤمن بقضاء الله وقدره ، يظل واقفا فى مكانه ، يندب حظه مرددا : لو كنت فعلت كذا ، لكان كذا ، ولو لم أفعل كذا ، ما حدث هذا ، ولو لم يتدخل هذا أو ذاك ، لما وقعت فى هذا المأزق ، ويظل على هذا الحال مدة ، قد يصاب فيها باليأس النفسى ، فيعتريه شلل يمنعه عن مواصلة العمل ، أو محاولة استئناف مسيرة الحياة .

أما من يؤمن بقضاء الله وقدره منهما فيرى أنه فعل ما عليه ، وما أصابه لم يكن فى مقدوره تجنبه ، وعليه أن يواصل السير مرة أخرى نحو هدفه ، وبذلك يكون قد عاد الى نشاطه ، ونفض عن نفسه الآثار النفسية ، التى خلفتها الأحداث السيئة .

وعليه فيكون الاعتقاد فى القضاء والقدر ، دافعا الى العمل لا مثبطا له وقد عبر عن هذا المعنى الامام محمد عبده حيث يقول : « الاعتقاد بالقضاء والقدر ، اذا تجرد عن شناعة الجبر ، يتبعه صفة الجرأة ، والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود ، وتنشق منها مرارة النمور ، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الأحوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج عن كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح والتخلى عن نضرة الحياة . كل هذا فى سبيل الحق ، الذى قد دعاها الى الاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله ، يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه ، واعلاء كلمة

أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذاك ؟ وكيف يخشى الفقر من ينفق من ماله ، فى تعزيز الحق ، وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الالهية ، وأصول الاجتماعات البشرية ؟ •

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد ، مع بيان فضله فى قول الحق : **« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل • فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم»** (٣) •

فهذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم ، أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم »(٤) ••

ويرتبط الاعتقاد بالقضاء والقدر بالتوكل ارتباطا وثيقا ، ذلك أن المؤمن به يعمل ما يجب عليه ، ويتوكل على الله فيما يرمى اليه من أهداف ، معتقدا أن الله معه ، يوفقه ويؤيده ، يقول الله تعالى : **« ومن يتوكل على الله فهو حسبه »**(٥) ••

ويقول : **« ان الحكم الا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون »**(٦) ••

فالتوكل على الله ، هو الاعتماد عليه ، والتوكل على الله ، ليس كلمة ينطق بها المؤمن ، طالبا المعون من الله ، وانما هو قبل كل شىء ، اتباع الطريق المستقيم الذى جاء به الوحى فى القرآن الكريم ، راسما الحدود ، التى ينبغى على المسلم الالتزام بها ، أى أنه هو تنفيذ الوصايا ، والأوامر ، التى جاءت فى القرآن الكريم ، واجتناب ما نهى الله عنه ،

---

(٣) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٤) تاريخ الامام : ج ٢ ص ٢٥٩ وما بعدها نقلا عن : « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للدكتور محمد البهى ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٥) الطلاق : ٣ .

(٦) يوسف : ٦٧ ؛

فاذا لم يقم المرء بما يجب عليه ، صار توكله تواكلا وهو مذموم فى الاسلام .

فمن الخطأ البين ، ما يفهمه كثير من المسلمين اليوم ، من أن التوكل : هو القاء المسئولية فى مجال السعى على الرزق ، وفى العمل فى مجالات الحياة المتعددة على الله ، ثم يقعد المتوكل ، دون أن يعمل ، معتقدا أن الله كافيه ، ورازقه ، وهو لم يؤد ما فرضه الله عليه فى القرآن الكريم ، من المشى فى مناكبها ، والبحث ، والتنقيب عما يقيم أوده ، وينشر السعادة عليه ، وعلى أمته الاسلامية .

يقول الله تعالى : « **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** »(٧) ..

ويقول : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** »(٨) ..

أى ابحثوا فى الأرض عما تفضل الله به ، فوضعه فيها لتأكلوا منه .

ان التوكل بهذا المعنى ، وهو القعود عن السعى ، والكسل ، والتراخى فى العمل ، لم يأت به القرآن الكريم ، ولم يجر على لسان الأنبياء والمرسلين مع قومهم ؛ لأنه بهذه الصورة ، يكون تواكلا ، وكسلا ، وركودا فى الحياة الانسانية ، وحاشا لله أن يأمر بشىء يصيب الحياة فى المجتمع بالشلل ، والتوقف .

فالانسان خلق ليعمل ، ويسعى ، خلق ليتحرك يمينا أو شمالا ، خلق ليقاوم ويكافح عوامل الفناء فى هذا الكون ، خلق ليقيم حياة على هذه الأرض ، ولا تكون حياة الا بالسعى ، والعمل ، والمقاومة .

فمن يعمل ، يحق له أن يطلب المعونة من الله ، أى يتوكل عليه ، وهو موقن أن سيعينه .

أما من يترك العمل ، فلا يحق له أن يتوكل .

أما من يهمل فيما طلب اليه من واجبات ، فلا يمكن أن يكون الله حسبه ، لأن الله حسب من يتوكل عليه ، والمتوكل عليه منفذ لكل ما أمر به .

---

(٧) الملك : ١٥ .　　(٨) الجمعة : ١٠ .

ومن ضمن ما أمر به ، العمل ، والسعى ، فلا عون من الله لمن لا يعمل ، ولا تأييد منه لمن يتواكل ، أى يقعد عن العمل ، ويطلب المعونة من الله ، ولهذا كانت اجابة النبى ﷺ للأعرابى ، الذى سأله ، وهو واقف على باب المسجد ، أيعقل ناقته ، أم يتركها ويتوكل ، قوله ﷺ : « اعقلها وتوكل » ..

أى ان تركها بدون عقال هو تواكل لا توكل ، لأنه لم يأخذ بأسباب المحافظة عليها ، كما يدل على ذلك القرآن الكريم وروح التشريع الاسلامى ، فعقلها واجب ، ثم ما يلى ذلك ، يكون الاعتماد فيه على الله ، لأنه ما دام قد أدى ما عليه ، وهو عقلها ، فطلب المعونة من الله ، بحفظها ، فى ذلك الوقت تصرف سليم ، أما اذا تركها بدون عقال فقد فرط فيما طلب منه ، وعليه فيكون التوكل فى غير محله .

فعلى المسلم أن يؤدى ما عليه ، من الجد ، والسعى فى العمل ، ولا يفرط ، ولا يتهاون ، ويتوكل على الله ، أى يسأله التوفيق فى الوصول الى الهدف ، فان أخفق فلا يمنعه اخفاقه من مواصلة السير ، لأن ما حدث ، لا دخل له فيه ، فهو قضاء وقدر ، وعليه أن يحاول مرة ومرات ، لعل الله يوفقه فى الوصول الى هدفه المنشود فى هذه الحياة .

* * *

١٠ — الخير والشر فى حقيقتهما ونظرة الانسان اليهما

تضاربت الآراء قديما وحديثا ، حول تحديد الخير ، والشر ، ما هما ؟ وما مصدرهما ؟ وهل يوجد مقياس واحد للخير والشر ، على اختلاف العصور ، والأزمان ؟ وهل يصلح مقياس تقييم الخير ، والشر ، لكل الشعوب ، على اختلاف أجناسها ، وألوانها ، وعقائدها ؟ •

ومن أوضح الخلافات التى تثار حول هذه المشكلة ، هو الخلاف المتعلق بمركز الخير وقيمته • فهل للخير وجود مطلق ؟ أو هل هناك خير بالمعنى العام ؛ أو هو دائما نسبى ، تبعا لرضا فرد معين ، أو تفضيله ، فما هو خير عند هذا ، لا يكون خيرا عند ذاك ، وما تعارف عليه الناس فى القديم ، بأنه خير ، ينظر اليه المعاصرون على أنه شر ؟ •

ورغم هذا الاختلاف فى الرأى ، فقد ذهب كثير من العلماء ، الى وجود معيار واحد للخير ، والشر ، وهو صحيح منذ الأزل ، وهو الذى ينبغى أن يسرى على البشر أجمعين ، هذا المعيار لا يسرى على نحو عالمى شامل فحسب ، بل انه أيضا لا يرتبط بالعصر ، ولا بالموقع الجغرافى ، ولا يخضع للتقاليد الاجتماعية المعروفة ، ولا يتأثر بالاعراف القانونية الموضوعية ، ذلك هو ما وضعه الله ، وأنزله على أنبيائه ورسله ، فلو آمن الناس باله واحد ، كما أمرتهم الرسل ، وصدقوا ما جاء به الوحى ، واتبعوا ما أنزل على الرسل ، لأصبح حكمهم على الاشياء بالخيرية ، وعدم الخيرية واحدا ، ولصارت نظرتهم فى تقييم السلوك البشرى متطابقة •

وما يظهر من اختلاف فى الحكم على الأشياء ، بين أصحاب العقيدة الواحدة لا يرجع الى تضارب فى مصدر التقييم الالهى للأشياء ، وانما يرجع الى اختلاف المؤمنين فى فهم النصوص الدينية ، لأن الله لا يمكن أن ينزل الا قانونا أخلاقيا عاما ، ليس فيه اختلاف ولا تباين ، ولا يعتريه تضارب ، أو تناقض ، وعليه فيكون تباين الحكم على الاشياء ، واختلاف وجهات النظر فى الخير والشر من مكان الى مكان ، ومن عصر

الى عصر ، لا يمكن أن يكون راجعا الا الى الجهل بارادة الله ، المعبر عنها فى النصوص الدينية ، فلو كان الناس جميعا يعرفون الارادة الالهية ، لكان لهم جميعا قانون أخلاقى واحد ، ولوصف الجميع نفس الأشياء ، بأنها « خيرة » ، ونفس الأعمال بأنها صالحة .

وما دامت الرسالات السماوية ، هى مرجع الحكم على الافعال ، والأشياء بالخيرية وعدم الخيرية ، فيمكن أن نقول : ان الخير هو البناء ، والعمل ، والانتاج والعمل على ترقية الحياة ، وحب الناس بعضهم لبعض ، وتعاونهم فى سبيل التغلب على مصاعب الحياة ، وتواصيهم بما يعود عليهم بالنفع ، فى الحياة الدنيا ، وما يؤدى بهم الى نيل الثواب فى الآخرة ، والشر هو ضد ذلك ، فهو الهدم ، والكسل والتراخى فى الانتاج ، ومحاولة اعاقة التقدم فى الحياة ، وهو أيضا ، كره الناس بعضهم لبعض ، وعدم التعاون فيما ينفع ، واقتراف ما من شأنه أن يدمر الحياة الانسانية ، ويتسبب فى تفكيك الاسرة والمجتمعات ، ويؤدى الى التشاحن والبغضاء بين الأمم والشعوب ، وفى داخل الاسرة ، والتجمعات الانسانية .

ولما كان الله لا يرضى الا بالخير ، ولا يأمر الا بما يعود على الانسان بالنفع والفائدة ، فقد خلق الانسان ، وأودع فيه حب الخير ، فمن طبيعة الانسان الميل الى النمو ، والتطور ، ومحاولة الاسهام فى بناء الحضارة الانسانية ، والترقى بأساليب الحياة البشرية ، ففى النفس الانسانية قوى كامنة تميل للبناء ، وهى تلتمس الظهور فى العمل الصالح ، وتسعى نحو التغيير ، عما هو كائن فيها من الجوانب الحسية والانفعالية ، والجسمية والذهنية ، وكل هذا مصدره خير ، تصديقا لقول رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » . أى على الخير كما جاء فى قوله تعالى : « **وانه لحب الخير لشديد** »[1] ..

ولكن قد يحدث فى بعض الاحيان ، أن يلتقى هذا النزوع البشرى نحو الخير ببعض القوى الخارجية ، التى تحول دون انطلاقه ، وسرعان

---

(١) العاديات : ٨ .

ما تستحيل طاقة البناء الخلاقة ، الى طاقة حيوانية هدامة ، فيميل الانسان الى الشر ، ويسير فى طريقه الى أن تطغى معالم الشر المكتسبة ، على ما عنده من قوى خيرة • ومعنى ذلك أن الانسان لا يولد شريرا بالفطرة ، وانما يصبح شريرا ، عندما تتعطل قوى الخير عنده عن الظهور ، فتطمس التيارات الشريرة الخارجية ، على ما عنده من نزوع نحو الانتاج ، فيقع ضحية للمرض النفسى ، أو للميول العدوانية الهدامة فيصبح شريرا •

أى أن ما يحول الانسان الى الشر ، ليس كامنا فى ذاته ، وانما هو طارىء عليه من الخارج ، من البيئة ، ومن أساليب التربية والتعاليم ، ومن وسائل الثقافة التى يتلقاها ، من أبويه ، وأصدقائه ، وجيرانه ، ومجتمعه ، وصدق رسول الله ﷺ حين يقول : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه •• أو ينصرانه •• أو يمجسانه » ••

أى أن الانسان يولد بطبيعة خيرة ، ويكتسب الشر من مجتمعه ، الذى يعيش فيه ، فالخير هو أصل الوجود فى الانسان ، والشر مظهر طارىء يحاول اعاقة الطاقة البناءة فى الانسان ، ولا تقتصر المحاولة على الاعاقة ، بل تحولها الى نوازع هدامة ، تغرس فى نفسه بطريق التلقى والمعاشرة ، فيقترف السيئات ، ويرتكب الاعمال الشريرة ، ويصبح الميل الى الشر متمكنا منه ، حتى يصير كالجزء منه ، أى يصير كنفسه ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله : **« ان النفس لأمارة بالسوء »**(٢) • •• وهى النفس التى اكتسبها من البيئة ، فما فى الوجود من تنافر وتشاحن ، واضطراب ، يرجع فى حد ذاته الى وسوسة هذه النفس التى تدفع صاحبها الى نشر الانقسام والخصام ، وتغليب الحرب على السلام •

وهذه النفس المكتسبة من البيئة توجه صاحبها الى التفنن فى خلق ضروب التعذيب والايلام ، فمتى اكتسب الانسان صفات الشر من البيئة ،

---

(٢) يوسف : ٥٣ •

openkhalil.com

استمر فى هذا الطريق مشيعا الاضطراب بين القيم ، ومحاولا توطيد دعائم الخلاف بين المعايير الأخلاقية ، لأنه نسى المعيار الأخلاقى الصحيح ، نسى ما أنزل الله ، أنسته اياه تلك الصفات التى اكتسبها من أصحاب السوء ، فما يرتكبه من أعمال الشر ، نابع من هذه النفس :
« ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك »(٣) .
.. لأنها هى التى أغوتك ، ودفعتك الى ارتكاب المعاصى المهلكة ، واقتراف السيئات التى تعود عليك ، وعلى من حولك ، وما يحيط بك بالدمار المخيف .

ولكى يحفظ المجتمع ، بعيدا عن هذه الشرور والآثام ، ينبغى العناية بمصادر الثقافة والمحافظة على الأساليب الصحيحة فى حياة الأسرة ، ولما كانت النظم البشرية ، والعادات الأسرية ، تتأثر بنوازع شريرة ، ولا يخلو مجتمع من المروجين لها ، فقد وجب علينا أن نتمسك بما أنزل الله ، ولا نفرط فى شىء منه حتى نقى أنفسنا ، ومجتمعاتنا من عوامل الهدم ، والتخريب . وأول ما يجب علينا : هو الايمان بالله .

يقول الله تعالى : **« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم »**(٤) ..

فمن الخير أن نؤمن به ، ولا نعبد سواه ، حتى لا نتخبط بين شرائع وقوانين ، لا يعرف الصحيح فيها من الفاسد ، ولا يبين حقها من باطلها ، فالايمان بالله وبما أنزل على محمد ﷺ ، هو خير للأمة وللبشرية :
« ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم »(٥) ..

فالايمان خير ، والكفر شر ، قال تعالى : **« ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون »**(٦) ..

والعدل والاحسان ، وصلة ذى القربى ، سواء أكانت قربى جوار ، أو قربى نسب خير .

---

(٣) النساء : ٧٩ .
(٤) النساء : ١٧٠ .
(٥) آل عمران : ١١٠ .
(٦) الأنفال : ٥٥ .

والفحشاء والمنكر شر ، قال تعالى : **« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى »**[٧] ..

ويمكن اجمال القول ، بأن كل ما أمر به الله سبحانه وتعالى خير ، وما نهى عنه شر ، فمن لم يمتثل لأمر الله ، فهو انسان يسعى لنشر الفساد فى الأرض ، والله لا يحب المفسدين . فالمفسدون عليهم لعنة الله فى الأرض ، ولهم سوء العذاب يوم القيامة . يقول الله تعالى : **« الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون »**[٨] ..

ويقول : **« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »**[٩] .

* * *

---

(٧) النحل : ٩٠ .
(٨) البقرة : ٢٧ .
(٩) الرعد : ٢٥ .

١١ — أعمال الانسان فى الدنيا والجزاء عليها

خلق الله الانسان ، وأودع فيه جملة من الغرائز والصفات ، طبعته بطابع ، متعدد الميول والرغبات ، ومن هذه الصفات : ميله الى تحصيل أكبر قدر ممكن من المنافع ، سواء أكانت مادية ، أم معنوية ، ولذا نراه يسعى فى مجالات الحياة المختلفة ، للوصول الى هذا الهدف ، فهو يجد ويجتهد لتحصيل المال ، أو الجاه والسلطان ، أو لاشباع رغبات نفسية عنده ، ترنو الى الشهرة وحب الظهور •

ولكن الذى يحكم عقله ، فى هذا الخضم الهائل ، من التيارات الجارفة ، فى مجالات الحياة المختلفة ، يهتدى دائما الى سلوك الطرق التى تضمن له استقرارا نفسيا دائما ، وجزاء لا يعقبه ندم ، أو يؤدى به الى هلاك • ولذا نرى العقلاء وأصحاب الرغبات المعتدلة يلتزمون فى حياتهم بما تمليه عليهم ضمائرهم الحية ، من عدم الخروج على التقاليد الاجتماعية التى تعارف الناس على ضرورتها فى الحياة الاجتماعية ، وعدم مخالفة القانون ، الذى ينظم العلاقات بين الناس ، وكذلك الالتزام ، بتأدية ما يعود على الفرد والأمة ، بالخير والسعادة •

ولما كان الوحى السماوى ، هو المصدر الوحيد ، لتنظيم المجتمع ، وتقعيد القواعد ، التى يجب على كل فرد الالتزام بها ليؤدى دوره السليم والصحيح فى البناء الاجتماعى ، فقد وجب على المؤمن ، عدم الخروج عليه ، فى كل مجالات حياته فهو حين يؤدى ما أمره الله به ، ويكف عما نهاه عنه ، فقد سار على الطريق الصحيح ، الذى يؤدى به الى اشباع رغبته للحصول على أكبر نفع فى الدنيا والآخرة ، وسوف يجنبه سلوك هذا الطريق عثرات الدهر فى الدنيا ، ويخلصه من العذاب الأليم فى الآخـــرة •

ذلك أن الله يثيب كل من عمل عملا صالحا يقول تعالى : **« من عمل صـــالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »**(١) ••

---

(١) النحل : ٩٧ .

ويقول : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عنـدنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون »(٢) ..

ولا يثيب الله المؤمن على عمله فى الآخرة فقط ، بل يجزيه فى الدنيا ، ويثيبه فى الآخرة ، يقول الله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ، قالوا خيرا ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين • جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار ، لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزى الله المتقين »(٣) ..

ويقول : « قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حســاب »(٤) ..

ويقول : « وما كان قولهم (أى قول المؤمنين ، الذين ثبتت أقدامهم فى الجهاد فى سبيل الله) الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين • فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين »(٥) ..

وكما بشر الله المؤمنين بالجنة ، توعد الكافرين بالنار ، فقال تعالى : « والذين كفروا وكـذبوا بآياتنا أولئك أصـحاب النـار ، هم فيهـا خالدون »(٦) ..

وقال : « ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد »(٧) ..

وقال : « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم »(٨) ..

وما يشاهد فى هذه الحياة الدنيا ، من امتلاك الكفار والعصاة كثيرا من أسباب المتع المـادية ، ليس دليلا على استحسان الله لموقفهم من الايمان ، بل ان هذه الظاهرة تحدث عنها القرآن الكريم ، فبين أنها من

---

(٢) سـبأ : ٣٧ .
(٣) النحل : ٣٠ ، ٣١ .
(٤) الزمر : ١٠ .
(٥) آل عمران : ١٤٧ ، ١٤٨
(٦) البقرة : ٣٩ .
(٧) آل عمران : ٤
(٨) التوبة : ٣ .

باب املاء الله للكافر ، ليظهر الوجه الحقيقي لنفسه الأمارة بالسوء ، لأن هذه النفس تطغى ، وتستمر في طغيانها ، اذا أحست أنها تملك القوى المادية . يقول الله تعالى : **« كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى »**(٩) ..

ولذا يقول الله تعالى مبينا الحكمة في حصول بغض الكفار على المال والجاه : **« ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، انما نملى لهم ليزدادوا اثما ، ولهم عذاب مهين »**(١٠) ..

ويقول : **« قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار »**(١١) ..

فمحور الثواب والجزاء في الآخرة ، هو الايمان ، فمن آمن ، وعمل صالحا ، يثاب على عمله ، بل يضاعف له الثواب في الآخرة ، واذا أساء فيعاقب بمثلها فقط ، أي أن الله يشبع رغبة الانسان في الحصول على جزاء ما يعمل ، فيعطيه أكثر من عمله اذا كان صالحا ، ويعاقبه بمثل اساءته فقط ، فالله أخبرنا بأنه يجازى على الحسنة بخير منها ، ويعاقب على السيئة بمثلها ، فيقول في كتابه العزيز : **« من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون »**(١٢) ..

وقد وصلت الزيادة في الثواب على الحسنة الى عشرة أضعافها ، يقول الله تعالى : **« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون »**(١٣) ..

أي لا يظلمون حين يعاقبون على السيئة بمثلها ، أما ما يثيبهم الله على الحسنة بعشر أمثالها ، فهو تفضل منه سبحانه وتعالى ، تكريما لهم ، لأنهم آمنوا أولا ، وأضافوا الى ايمانهم عملا صالحا .

وقد يكفر الله سيئات المؤمن ، اذا التزم بالعمل الصالح ، ويدخل

---

(٩) العلق : ٦ ، ٧ .
(١٠) آل عمران : ١٧٨ ..
(١١) الزمر : ٨ .
(١٢) القصص : ٨٤ .
(١٣) الأنعام : ١٦٠

ذلك فى باب العفو عن السيئات ، اذا كان الطابع العام لسلوكه حسنا ، يقول الله تعالى : **« ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته »**(١٤) •

هذا اذا كانت السيئة تتعلق بحق الله تعالى فقط ، كأن يفعل الانسان شيئا سيئا لا يتعلق به ضرر لأحد من الناس • أما اذا تعلقت السيئة بحق العبد ، كأن يكون العمل سببا مباشرا ، أو غير مباشر لضرر انسان ، كالسرقة منه ، أو الحاق الأذى له بأى صورة من صور الاساءة فلابد من رد المسروق ، وعفو من وقع عليه الايذاء ، كشرط من شروط غفران الله له هذه السيئة ، كذلك اذا كان العمل فيه ضرر للمجتمع ، كسرقة المال العام أو اتلافه ، فلابد من رد المال واصلاح ما تلف ، كى يكون الأمل كبيرا فى عفو الله له هذه السيئة •

فالعمل الصالح سبب من أسباب تكفير السيئة ، اذا وقعت عفوا دون اصرار أو استمرار ، فمن يؤمن ويعمل صالحا ثم يعتريه ضعف فى بعض الأوقات فيقع فريسة الغواية ويرتكب معصية ، فان تذكر الله ورجع اليه ، فأقلع عما وقع فيه وتراجع عن التمادى فى هذا الطريق المعوج فسأل الله الغفران ، فلسوف يغفر الله له هذه الزلة ، لأنها طارئة ، وقع فيها فى فترة غفلة من أوامر الله سبحانه وتعالى ، وهذه منحة من الله للمؤمن فقط ، أما الكافر فلن يغفر الله له اطلاقا ، يقول الله تعالى :
« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »(١٥) ••

فمهما يقدم الكافر من أعمال صالحة فلن تكون سببا فى نجاته من النار ، يقول الله تعالى : **« ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين »** (١٦) ••

ويقول : **« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب »**(١٧) ••

---

(١٤) التغابن : ٩ •
(١٥) النساء : ٤٨ •
(١٦) آل عمران : ٩١ •
(١٧) النور : ٣٩ •

وخلاصة القول : ان الثواب فى الآخرة لا يكون الا لمن آمن وعمل صالحا فيثاب على ايمانه ، وعلى ما قدم من عمل صالح ، وقد يصل هذا الثواب الى عشرة أضعاف ما قدم من الأعمال الصالحة ، أما اذا اقترف سيئة فيعاقب بمثلها ، وقد يغفرها الله له ، اذا كانت عارضة ، أى اذا حدثت مرة ثم أسرع فرجع عنها ، واستغفر الله ، ورد ما عليه ، اذا كان الأمر يتعلق بالفرد أو المجتمع .

أما الكافر فليس له جزاء على كفره الا النار ، أما عمله الصالح فلا أثر له ، أى لا ينقذه من دخول النار ، وان كان يخفف عنه عذابها ، بمعنى أن الكافر ، الذى يعمل فى الدنيـــا عملا صـــالحا لبنى وطنه ، أو لمجتمعه الانسانى ، فسوف يكون عذابه أقل وأخف من عذاب الكافر ، الذى لا يعمل صالحا فى الدنيا ، فكما أن الجنة درجات فالنار درجات أيضا ، أسفلها وأشدها عذابا لمن كفر ولم يعمل صالحا فى حياته ، وأخفها من كفر وقدم من الأعمال الصالحة ما انتفع به بنو وطنه ، أو ما خفف ألمـــا عن الانســـانية .

فاذا نال المؤمن خيرا فى الدنيا ، حمد الله ، وان أصابه مكروه صبر ، لأن ذلك ابتلاء واختبار ، لمدى قوة ايمانه بالله ، يقول الله تعالى : **((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))**(١٨) ..

فان رأى الكافر ينعم بنعمة هو محروم منها ، فليعلم أن ذلك لحكمة يعلمها الله تعالى ، وليتذكر أن ذلك ربما يكون اختبارا له أيضا ، لتظهر النفس على حقيقتها ، ولولا ضعف النفس الانسانية ، وعدم قدرتها على تحمل مثل هذه الفتنة لزاد الله فى مال الكافر ، يقول الله تعالى : **((ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا ، وان كل ذلك لمـــا متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين))** (١٩) .

---

(١٨) العنكبوت : ٢،٣ . (١٩) الزخرف : ٣٣ — ٣٥ .

أى أن الله لم يعط الكافر هذا ، حتى لا يصبح الناس كلهم كافرين ، لأن النفس ضعيفة تنهار أمام هذه المغريات المادية بسرعة ، فعلى المؤمن أن يدرك هذه الحقيقة : ويعلم أن العاقبة خير وأبقى . ومع ذلك لا ينبغى أن يكون هذا المعنى سببا فى تقاعس المؤمن عن عمله ، وتكاسله فى تحصيل المادة من طرقها المشروعة ، لأن التكاسل سيئه يعاقب عليها ، والجد والعمل فى مجالات الحياة المختلفة عمل صالح يثاب عليه ، فليجد ويجتهد ، حتى يكون فى زمرة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأولئك لهم الدرجات العلى .

* * *

obeikandi.com

١٢ — الهداية الى السعادة فى الدنيا والآخرة

يسعى الناس جميعا الى سلوك الطرق التى تؤدى بهم الى أن يعيشوا سعداء ، غير أن مفهوم السعادة ، يختلف من شخص لآخر ، فبينما يرى بعض الناس ، أن سعادتهم لا تتحقق ، الا بالحصول على قدر أكبر من المال ، أو بتقلد المناصب الكبرى ، التى تضفى عليهم سلطانا ، وجاها ، وشهرة بين الناس ، يرى آخرون السعادة ، فى الدفاع عن المبادىء السامية ، أو فى القيام بمساعدة الضعفاء ، ومعاونة المحتاجين ، وفى دعوة الناس الى حب الخير لبعضهم ، وحثهم على الالتزام بالمبادىء الأخلاقية ، حتى يعيش الناس فى أمان واطمئنان ، وحب ووئام، يساعد بعضهم بعضا ، فيحمى الأخ أخاه ، ويحنو الجار على جاره ، ويحول المواطن دون وقوع الشر على أخيه المواطن ، وتتساند الشعوب والأفراد جنبا الى جنب ، فى مواجهة تقلبات الدهر وأعاصير الحياة .

ورغم اختلاف الاتجاهات والمشارب ، فى تفسير معنى السعادة ، وطرق الحصول عليها ، فان هناك معنى عاما للسعادة ، يكاد يجمع عليه الناس جميعا ، ألا وهو أنها تكمن فى اطمئنان النفس ، وراحة الضمير ، وصفاء القلب ، وخلوه من الغل ، والحقد ، والقلق على المستقبل ، ولذا ذكر الله هذه الصورة فى معرض الامتنان على المتقين ، فقال : **« ان المتقين فى جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين »**(١) ..

ذلك أن الجو النفسى ، المحيط بالشخص يؤثر تأثيرا بالغا على جميع أعصابه ، فاذا ساده التوتر ، والقلق، والخوف، انعكس ذلك على الأعصاب، فيهتز بنيانها ، ويضطرب عملها ، فيصاب الانسان بشعور لا يستطيع تفسيره ، ولا يدرك له سببا مباشرا ، يمكنه ازالته ، وساعتئذ لا ينفعه مال ولا بنون ، ولا ينقذه جاه ولا سلطان ، بل قد تصبح هذه النعم المادية،

---

(١) الحجر : ٤٥ — ٤٨ .

من العوامل التى تضاعف من علته وتؤخر شفاءه ، أو قد تكون هى سبب هذه العلة ، عندما يسيطر عليه حب المال والجاه ، فيسلك طرقا يرى أنها توصله الى هدفه ، بينما هى تزيد من علته ، وتضاعف من ألمه ، لأنه يحقد على من يفوقه فى هذا المجال ، ويسعى الى وضع العقبات فى طريقه ، أو تدبير المؤامرات لسلب ما فى يده من مال ، أو لاقصائه عن مركزه ليتقلده هو ، وسواء نجح فى هذا ، أو أخفق ، فهو يعيش حياته كلها فى قلق مستمر ، يخشى أن تفشل خططه فى الوصول الى الهدف ، أو يخاف ضياع ما حقق من أهداف ، عندما تصبح فى يده ، لأنه يظن أن غيره يكيد له المكائد ، كما فعل هو مع غيره ، ويسعى الى سلب ما بيده ، كما صنع هو مع من سبقه .

فالمال والجاه ليسا سببين من أسباب السعادة فى حد ذاتهما ، وانما هما وسيلة فقط ، لتخفيف عبء الحياة المادية عن الانسان ، فهما سلاح ذو حدين ، أى أنهما قد يكونان سببا من أسباب سعادة المؤمن ، اذا اتبع فى الحصول عليهما الطرق التى رسمها الله تعالى ، فلا يظلم أحدا ، ولا يحقد على أحد امتاز عنه بكثرة المال ، أو فاقه فى تقلد المناصب ، أو نال مكانة سامية بين بنى قومه ، فان فعل ذلك اطمأنت نفسه ، فرضيت بما قسمه الله لها ، وفى ذلك سعادة بالغة ، لا يراها الا من يعيش فى ظلها ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا حيث يقول الله تعالى : « **يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى** » (٢) . .

فالنفس لا تطمئن الا اذا رضيت بما قسم الله لها ، وتمنت للناس الخير كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ حيث يقول : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

فالايمان بالله ، والالتزام بالطرق المشروعة فى مجالات الحياة المادية ، وحب الأخ لأخيه ، وعدم تمنى زوال ما عند الغير من نعمة ، هى معالم الطريق التى تؤدى الى السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة .

(٢) الفجر : ٢٧ — ٣٠ .

أما الحقد ، فهو مدمر للنفس والبدن ، وهو السبب الرئيسي ، الذى يدفع الانسان الى ايذاء أخيه ، وهو غافل عن ادراك أن هذا هو ايذاء لنفسه أيضا ، لأنه يضفى على حياته القلق النفسى والتوتر العصبى ، فلا تتحقق له سعادة ، فهو لا يهنأ بحياة ، لأن الشعور باللذة الحقيقية قد فقد ، وسيطر عليه الايحاء بأنه سينتصر بهذا على ما يظنهم أعداءه ، بينما يسوقه هذا العمل الى الدمار والهلاك ، ولن يدرك ذلك الا بعد فوات الأوان ، وساعتئذ لا يلومن الا نفسه ، يقول الله تعالى حكاية عن هذه النفس : « **وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء** »[٣] ..

ويقول : « **وما أصابك من سيئة فمن نفسك** » [٤] ..

والحد الثانى للمال ، هو استعماله لالحاق الضرر بالناس ، أو تحصيله من طرق غير مشروعة ، كالسرقة ، والغش ، فى المعاملات التجارية ، أو المغالاة فى الأسعار ، لتحصيل أكبر ربح ممكن ، على حساب الضعفاء والمساكين ، وفضلا عن أن هذا العمل سيعاقب عليه المرء فى الآخرة ، فهو أيضا سبب من أسباب الشقاء فى الدنيا ، لأن من يتبع هذا الاسلوب غير الشرعى فى تحصيل المال ، فهو لا محالة ، قد سيطر عليه حب الثروة ، على نحو يجعله غير مطمئن الى ما فى يده ، وغير راض بما حصله ، وتلك حالة تفقده السعادة ، وتجعله يعيش قلقا بالليل والنهار ويخشى أن يضيع ما بيده ، ويخاف من عدم الوصول الى المزيد .

وخلاصة القول : ان المال لا يكون سببا من أسباب السعادة ، الا اذا التزم المرء بالطرق المشروعة فى تحصيله ، وأدى ما عليه من زكاة ، يقول الله تعالى : « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** » [٥] ..

ويقول : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا**

---

(٣) يوسف : ٥٣ . (٤) النساء : ٧٩

(٥) التوبة : ١٠٣ .

منـا ولا أذى لهم أجرهـم عنـد ربهـم ولا خوف عليهـم ولا هم يحزنون »(٦) ..

فالايمان وتحصيل المال من طرقه المشروعة ، واعطـاء الفقراء حقهم منه ، يضمن السـعادة لأن الله وعد من يلتزم بذلك بالأمان والاطمئنان فى الدنيا ، وبالأجر والثواب فى الآخرة .

أما اذا فقد الايمان ، فلا تكون سعادة ، بل حقد على الغير ، وخوف منه ، وركض وراء المال فى كل الطرق ، وفى كل ذلك تدمير للنفس ، وهلاك للبدن ، وفضلا عن ذاك ، فمآله الجحيم والعذاب فى الآخرة ، يقول الله تعـالى : « **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون »**(٧) ..

كذلك من عوامل السعادة ، الرضا بما قسم الله ، لقد جـاء فى الحديث القدسى أن الله يقول :

« عبدى .. انك تريد وأنا أريد ، فان رضيت بما أريد ، أعطيتك ما تريد ، وان لم ترض بما أريد أتعستك فيما تريد ، ولا يقع فى ملكى الا ما أريد » ..

فلا ينبغى لانسان أن يتطلع الى ما فى أيدى الناس ، بل عليه أن يجتهـد فى عمله ، فان وصل الى مركز ، حمد الله عليه ، واستمر فى عمله ، ولا يحقد على من تميز عنه فى مركز ، أو جاه ، لأن ذلك معصية ، وفى المعصية فقدان للسعادة فى الدنيا والآخرة .

فطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، ينحصر فى الايمان ، والعمل الصالح ، سواء أكان هذا العمل يتعلق بالعبادات ، أو بالمعاملات .. ففى العبادات ، ينبغى أن يحرص المؤمن على تأدية الفرائض فى أوقاتهـا ، والالتزام بالفضائل التى رضى الله بها .

أما فى المعاملات فعليه أن يكون سعيه الى تحصيل المـال من طريق

---

(٦) البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢ . (٧) التوبة : ٥٥ .

حلال ، وأن ينفقه فيما يعود عليه وعلى أسرته وأمته بالخير ، وأن يلتزم فى معاملته للناس ، بالمبادىء الاسلامية التى تدعو الى حب الأخ لأخيه ، وعطفه عليه ، ومساعدته له ، فان ذلك يحقق السعادة للجميع .

ولا تكتمل السعادة فى الأمة ، الا بالتواصى بالحق ، وذلك بأن يوجد فى المجتمع ، من يدعو الناس الى الخير وينهاهم عن الشر يقول الله تعالى : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »**[8] ..

فالدعوة الى الله ، تحقق السعادة للداعى ، الذى يرى فى قيامه بهذا العمل ، اشباعا لنزعة دينية عنده ، وارضاء لله ، كما يؤدى بالأمة ، الى السعادة حيث يسود الايمان ومظاهره ، ويختفى الضلال وآثاره ، وبذلك يكتب الله لهم جنات عدن فى الآخرة ، جزاء ما قدموا فى الدنيا ، فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

* * *

---

(٨) آل عمران : ١١٠ .

١٣ ــ ضرورة بعـث الرسـل

لو نظر الانسان حوله ، وتمعن فى مظاهر الحياة ، وأمعن التفكير فى ملامح كل واحد من الناس ، لأدرك اختلافات شتى ، ومشارب متعددة ، وأمزجـة متنوعة ، وآراء مختلفة ، تصل الى حد التناقض ، والتضارب ، بل والتطاحـن المزمن الذى يودى بالمجتمع الى هاويـة الانحدار ، أو الهـلاك •

وهذا الاختلاف والتناقض ، يشمل ناحيتى الانسان : الفسيولوجيـة والروحية ، فشكل كل انسان وملامحه ، يختلف عن شكل الآخر ، حتـى ولو كان أخا شقيقا ، كذلك تنوعت الأفكار ، لدرجة أن من النادر ــ بل يكاد يكون من المستحيل ــ أن تتطابق أفكار اثنين تطابقا كليا ، وما نسمعه من حين لآخر ، من التشابه بين اثنين فكريا ، أو جسمانيا ، فليس الا فى الغالب الأعم ، أى فى معظم الملامح ، أو فى غالبية الأفكار ، أما التطابق الكلى فهو مستحيل •

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الظاهرة ، فى قوله تعالى : **« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين »**[1] ••

فالاختلاف ، وتعدد الافكار والاتجاهات ، صفة لازمة للمجتمعات والأفراد ، ويعلل العلماء ذلك ، بأن الانسان ابن بيئته ، ولما كانت البيئات مختلفة ومتعددة ، فلابد أن يأتى تكون الناس متباينا ومختلفا ، حتى الأفراد الذين يعيشون فى بيئة واحدة ، يظهر عليهم بعض الاختلافات ، لأن البيئة تحتوى على عناصر متعددة ، وقابلية الانسان تميل الى عنصر ، قد لا يميل اليه آخر ، ومن هنا جاء الاختلاف بين أبناء المجتمـع الواحد ، بل بين أعضاء الأسرة الواحدة •

وعليه •• فلا يمكن أن يلتقى الناس على مبدأ فكرى واحد من تلقاء أنفسهم ، أو يتفقوا على نظام واحد فى حياتهم ، أو يهتدوا بعقولهم الى

---

(١) هود : ١١٨ •

أسلوب واحد فى حياتهم الاجتماعية ، ويجمعوا على أنه هو الذى يضمن لهم الحياة السعيدة ، أو يجنبهم الذلل فى معاملاتهم ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، وحوادث التاريخ الماضي والحاضر تؤكد لنا هذا المعنى ، فقد حدثنا التاريخ ، وتنبئنا الأحداث التى نشاهدها كل يوم ، عن آراء شتى ، ومذاهب فكرية متعددة ، واتجاهات سياسية لا حصر لها ، يدعى أصحابها أنهم قد جاءوا بالنظام الأمثل ، والأحسن ، والأوفق للمجتمع الانسانى ، ويزعم صاحب كل مبدأ ، أن ما عنده هو الصحيح ، وما عند غيره باطل ، لا يصلح لتسيير دفة سفينة الحياة البشرية .

ووسط هذه الادعاءات المتنافرة ، والأصوات المتناحرة ، لا يمكن للانسان بقدرته العقلية المحدودة ، أن يفضل رأيا على رأى ، أو يطمئن بصورة لا تقبل الشك ، الى صحة اتجاه دون آخر ، بل من المستحيل أن يوفق اتجاه ما ، الى الصواب فى جميع مجالات الحياة ، لأن أصحابه وواضعيه بشر ، يخضعون فى تكوينهم العقلى ، الى بيئات ثقافية معينة ، اذن .. فليس من الممكن أن يهتدى عقل الانسان ، الى كل ما ينفع البشرية بنفسه ، لأنه خاضع لظروف معينة ، يعجز عن مجاوزتها .

ولهذا كان ارسال الرسل لازما ليبينوا للناس ما عجزوا عن فهمه ، وليوضحوا لهم ما غاب عنهم ، بسبب قصورهم البيئى ، وليرشدوهم الى الطريق المستقيم ، وليكشفوا لهم جانب الضلال فيما توصلت اليه عقولهم العاجزة فى العقائد والمعاملات ، وبذلك تستقيم عقائدهم ، وتسير حياتهم على نحو مستقيم ، يقول الله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ، ليبين لهم** » (٢) ..

أى ليظهر لهم ما هم فيه من ضلال ، ويأمرهم باجتنابه ، وليبلغهم وحى الله ويوصيهم باتباعه .

فارسال الرسل لازم ، لبيان ما اختلف عليه الناس ، ولاخراج من اتفق منهم على الضلال ، من دائرة الضلال ، الى نور الايمان ، ولهداية

(٢) ابراهيم : ٤ .

من ضل فى تفسير الرسالات السابقة ، ومن سلك طرقا ملتوية لجـذب النصوص الدينية ، وتأويلها تأويلا يخدم ميوله المتمردة على الحق ، تأويلا يتبع هواه المتردى فى مدارك الهوى والشهوة ، يقول الله تعالى : **« كان الناس أمة واحدة** (أى فى انحرافهم وبعدهم عن الحق) **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »**(٣) .

فارسال الرسل هو لهداية العقل البشرى العاجز ، الى طريق لا يعتريه الخطأ ، لأنه من العليم الحكيم ، ولابلاغ الناس الحكم الصحيح ، فيمـا اختلفوا فيه ، ولاخبارهم أن من اتبع طريق الله الذى رسمه الوحى ، المنزل على الرسل ، فسيكون ثوابه الجنة ، ومن خالفه فمصيره النار . يقول الله تعالى : **« وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين »** (٤) ..

وهـو أيضـا لقيـام الحجـة على الناس ، يقـول الله تعـالى : **« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنـاس على الله حجـة بعد الرسل »** (٥) . .

ويقول : **« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا »**(٦) ..

فلا عذر لمن جحد الايمان ، وتمادى فى الكفر ، ولا لمن ضل ، فاتبع هواه ، ولا لمن عجز عقله عن الوصول الى الطريق المستقيم ، وركن الى عجزه ، فلم يسلم قياده لمن نزل عليهم الوحى من الرسل والأنبيـاء ، فهم وحدهم ، الذين وضحوا للناس ، كل ما يتعلق بالايمان ، وبينوا لهم طريق الهدى ، ولهذا فلن يستجاب لمن أنكر رسالتهم ، عندما يستجيرون ، وهم فى عذاب النار يوم القيامة ، ولن يلتفت الى صراخهم وعويلهم ،

---

(٣) البقرة : ٢١٣ .
(٤) الأنعام : ٤٨ .
(٥) النساء : ١٦٥ .
(٦) القصص : ٥٩ .

عقابا لهم على موقفهم من الرسـل فى الدنيا ، يقول الله تعالى : **« وقال الذين فى النار لخزنة جهنم أدعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب • قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ، قالوا بلى ، قالوا فادعوا، وما دعـاء الكافرين الا فى ضـلال »** (٧) • •

ويقول : **« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق • ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله ، انه قوى شديد العقاب »** (٨) • •

وخلاصة القول : ان اختلاف البيئات الطبعية والثقافية ، كان سببا فى اختلاف الناس فى ميولهم وأفكارهم ، مما جعل المجتمعات البشرية تعج بالاتجاهات الفكرية المختلفة ، حيث يعجز العقل البشرى عن معرفـة الصحيح من الخطأ ، ولهذا بعث الله الرسل ليبينوا لهم ذلك ، حتى ينقذوهم من التطاحن المدمر ، والتشاحن المهلك ، فيحيون حياة سعيدة فى الدنيا ، ويلاقون جزاء حسنا فى الآخرة ، وصدق الله اذ يقول : **« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »** (٩) • •

لأن اختلاف الأفكار وتطاحنها ، وعدم القدرة على معرفة ما ينفع منها وما يضر ، هو موات للمجتمعات والأفراد ، فاذا جاءهم من يدعوهم — وهم الرسل — الى اتباع ما ينقذهم من هذه البلبلة الفكرية ، فينبغى عليهم أن يستجيبوا له ، لأن فى ذلك حياة لهم •

* * *

---

(٧) غافر : ٤٩ ، ٥٠ .   (٨) غافر : ٢١ ، ٢٢ .
(٩) الأنفال : ٢٤ .

١٤ ــ خواطر داعية حول بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم

كان العالم فى القرن السادس الميلادى فى ظلام دامس ، وليل حالك ، اضياع نور الحقيقة الالهية ، بين ظلم الأكاسرة وطغيانهم ، وبين فساد الرومان ، نتيجة انحرافهم عن تعاليم المسيح عليه السلام ، ولم يستطع الكهان بيان الحقيقة للناس ، لأن ما لديهم لم يكن سوى أفكار مجموعة من البشر ، حاولت الوصول الى كنه الرسالة السماوية فعجزت ، لأن الانسان لم يستطع الوصول الى ذلك ، الا عن طريق الوحى المنــزل من الســماء •

أما من كان خارج تلك الدولتين الكبريين آنذاك ، فلم يكونوا أحسن حالا فى علاقتهم بدين الله الواحد القهار ، اذ صنعوا أحجارا بأيديهم ، وأقاموها بجوار بيت الله فى مكة ، يعبدونها من دون الله ، وكان أمرهم عجبا ! يعبدون أصناما فى بيت الله،ويقدسون أحجارا صماء بجوار الكعبة الشريفة • تركوا تعاليم آبائهم التى علمهم اياها ابراهيم واسماعيــل عليهما الســلام ، واتبعوا طريق الشيطان فهم يئدون البنات خشية الفقر، ونسوا أن الله هو الرزاق ، ويقتل بعضهم بعضا استجابة لنزعة عصبية ، واشباعا لرغبة الحمية الجاهلية •

- كانت هذه هى حالة المجتمع الانسانى ــ قبل بعثة محمد ﷺ •
- فى فارس ظلم واستعباد وعبادة للنار !
- وفى الروم فساد وتطاحن بين المذاهب ، يصحبه سفك الدماء ، وتشريد الأطفال •
- وفى جزيرة العرب عبادة أحجار ، وتقديس أصنام ، يحيط بها عصبية قبلية ، ونعرة جاهلية ، وفساد فى الاخلاق ، أدى الى بعد عن الفضيلة ، والتنكر لمبادىء العدالة الاجتماعية •

فكان هذا ايذانا ببعث رسول ينقذ البشرية من الضلالة ، ويهديهــا

obeikandl.com

الى الصراط المستقيم ، فأرسل الله محمدا ﷺ ، هاديا ومبشرا ونذيرا :
« يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » (١) ••

تبشر من اتبعك : بالجنة وثوابها •• وتنذر من خالفك : بالنار وعذابها ••

تبشر من آمن بك رسولا : برضوان الله وجنته ، وتنذر من أنكر نبوتك : بغضب الله وعقابه •

تبشر من صدقك : بالأمن والأمان فى الدنيا والآخرة ، وتنذر من كذبك : بالخزى فى الدنيا والخسران فى الآخرة •

تبشر من أطاع الله : بالجزاء فى الدنيا والآخرة ، وتنذر من عصاه : بالخسران المبين فى الدارين •

تبشر من امتثل لأوامر الوحى : بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وتنذر من خالف شرع الله : بنار وقودها الناس والحجارة أعدت للظالمين لأنفسهم ، بمعارضتهم لشرع السماء ، والظالمين لغيرهم بسلبهم حقوقهم المشروعة ، التى أوصى الله بأدائها لهم •

لقد بعث رسول الله ﷺ رحمة للعالمين جميعا : **« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »** (٢) •

رحمة لهم ، لأنه أنقذ المستضعفين من ظلم المستكبرين ، وحرر المستكبرين من سيطرة نفوسهم الأمارة بالسوء على أفعالهم ، فرحمهم من تحمل وزر ما يرتكبون من آثام •

كانت بعثته نورا وهداية للجميع ، وتهذيبا وتكريما لكافة الناس ، وصدق رسول الله ﷺ حين يتحدث عن نفسه قائلا : « انما أنا رحمة مهداة » ••

حقا كان رحمة مهداة الى ذلك العالم التائه فى بيداء الجهالة ، المتخبط فى بحر الظلمات • جاء اليه محمد ﷺ فأحياه بعد ممات :
« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (٣) ••

---

(١) الأحزاب : ٤٥ .
(٢) الأنبياء : ١٠٧ .
(٣) الأنعام : ١٢٢ .

جاء اليه محمد ﷺ ، فهداه بعد ضلالة ، وأعاد اليه رشـده بعـد فقده ، ورد اليه كيانه بعد انهياره •

أعطاه حقوقه فى التفكير والحياة ، فلم يفرق بين الكبير والصغير ، ولا بين الغنى والفقير الا بالتقوى : « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » (٤) ••

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى　　فالكل فى حق الحياة سواء

بعث محمد ﷺ ، فحرر العقول ، والأبـدان ، وأنار القـرى والبلدان ، وشع ضوؤه من الجزيرة العربية ، بعد أن أشعل القلوب بروح الله ، وحرك المشاعر بتعاليم القرآن الكريم ، ومزج العقول بوحى السماء ، وقضى على الأوهام والمهاترات ، فانطلق أصحابه فى العالم :

● مصابيح تنير •

● وأعلاما تهدى •• كما قال ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ••

● وقناديل تكسح الظـلام ••

● وفرسانا تقضى على الفساد والظلم ••

فملكوا زمام العالم ، وطهروه من الأوثان والأصنام ، وحولوا البلاد الى بحار من العلم والمعرفة ، وغرسوا الأخلاق الحميدة ، والصفات الفاضلة ، وأصبحوا — وهم أعداء الأمس — اخوانا متحابين ، يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وصدق الله اذ يقول : **« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شـفا حفرة من النـار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون • ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون »** (٥) ••

* * *

(٤) الحجرات : ١٣ .

(٥) آل عمران : ١٠٣ ، ١٠٤ .

١٥ ــ الأنبيــاء والرســـل

ميز الله الانسان بالعقل على ســائر الكائنات الحية ، وكان ذلك سببا فى تسخير كل ما فى الوجود المشاهد له ، يقول الله تعـــالى : **« وسَخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار · وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار »**(١) ..

ويقول : **« ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض »** (٢) ..

ويقول : **« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »**(٣) ..

واستخدم الانسان عقله فى الانتفاع بما فى الكون ، غير أنه لم يستطع الوصول بنفسه الى حقيقة الوجود ، والى معرفة ما يحـــدث للانسان بعد الموت ، كذلك عجز عقله عن التوصل الى نظام ثابت للحياة ، يحفظ المجتمعات من التفكك والانهيار ، ولذا اصطفى الله من عبـــاده أناسا ، أنزل عليهم وحيه ، ليبلغوه للناس ، ويأمروهم باتباع ما جـــاء به من أوامر وتجنب ما تضمنه من نواهى ، ان هم أرادوا السعادة فــى الدنيا والفلاح فى الآخرة ؛ يقول تعالى : **« الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس »**(٤) ..

ويقول : **« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم »**(٥) ..

ويقول : **« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجـــاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء »** (٦) ..

ويقول : **« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم »** (٧) ..

---

(١) ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) الحج : ٦٥ .
(٣) الجاثية ١٢ ، ١٣ .
(٤) الحج : ٧٥ .
(٥) النساء : ١٧٠ .
(٦) الشورى : ٥١ .
(٧) آل عمران : ١٦٤ .

فالرسول شخص اصطفاه الله من الناس ، ليبلغهم ما يريد الله تبليغهم اياه .

وقد يطلق عليه نبى أيضا ، يقول الله تعــالى : **« يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »** (٨) . .

ويقول : **« كان النـــاس أمة واحـــدة فبعث الله النبيــين مبشرين ومنذرين »** (٩) . .

ويقول : **«انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده»**(١٠) .

ويقول : **« يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا »**(١١) . .

غير أن هناك رأى يقول : ان النبى هو ما نزل عليه وحى ، ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول هو ما نزل عليه الوحى ، وأمر بتبليغه ، فهو نبى أيضا ، أى أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا ، لأنه ، ان لم يؤمر بالتبليغ ، فهو نبى فقط ، فان أمر كان رسولا بالاضافة الى أنه نبى بمجــرد نزول الوحى عليه ، وهذا تفسير غير سليم ، والدليل على ذلك ، أن الله أمر كل الناس بالدعوة الى الله ، ونهاهم عن كتمان الحق ، وحذرهم من عدم تبليغه ، فقد قال تعالى محذرا من لم يبلغ أمر الله : **« واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيينه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون »** (١٢) . .

أى أنكم تقترفون اثما كبيرا ، اذا فعلتم مثلهم ، فكتمتم أمر الله ، ولم تبلغوه للناس ، فالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر واجب على كل مؤمن ومؤمنة ، يقول الله تعالى : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »** (١٣) .

ويقول : **« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعــروف وينهون عن المنكر »** (١٤) . .

---

(٨) التوبة : ٧٣ .
(٩) البقرة : ٢١٣ .
(١٠) النساء : ١٦٣ .
(١١) الأحزاب : ٤٥ .
(١٢) آل عمران : ١٨٧ .
(١٣) التوبة : ٧١ .
(١٤) آل عمران : ١٠٤ .

ويقول حكاية عن وصية لقمان لابنه : **« يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر »** (١٥) •

ومن هذا يتبين : أن من واجبات المؤمن أن يبلغ شرع الله الناس ، ويعلمهم أحكامه ، ويأمرهم باتباعه ، وينذر من غفل منهم عن أمر الله •

فاذا كان التبليغ واجبا على كل الناس ، أفلا يكون واجبا على النبى الذى نزل عليه وحى الله !! فالقول بأن النبى هو من نزل عيه وحى ، ولم يؤمر بتبليغه خاطىء من ناحيتين :

الأولى : أنه عطل مبدأ من مبادىء الدين ، وهو التبليغ ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لأن التبليغ ، اذا كان واجبا على كل مؤمن ، فهو على النبى أكثر الزاما ، بل هو أول شىء يجب عليه القيام به •

والثانية : التى يتضح منها خطأ هذا الرأى :

أنه اذا كان قد نزل عليه وحى ، فكيف لا يؤمر بتبليغه ؟ ان هذا أمر يتنافى مع العقل ، بل هو عبث ينسب الى الله تعالى وهو محال ، اذ كيف ينزل الله وحيا على انسان اصطفاه ثم لا يأمره بتبليغه • اذا كان الأمر كذلك — وهو ما تنزه الله سبحانه وتعالى عنه — فما الفائدة من تنزيل هذا الوحى ؟ ! •

اذن ، فليس هناك فرق بين نبى ورسول ، فالرسول نبى والنبى رسول ، أى أنهما لفظان مترادفان ، بل ان لفظ النبى أدق ، لأنه لا يطلق الا على من اصطفاهم الله ، أما الرسول فقط فيطلق على غيرهم ، اذ شع بين الناس قولهم : رسول الملك ، أو رسول الحكومة ، أو رسول القوم • ولا يقال : نبى الملك ، أو نبى الحكومة • فالنبى لفظ خاص بمن اصطفاه الله من الناس ، وأوحى اليه ، وأمره بتبليغ هذا الوحى لهم ، ويجوز اطلاقه بدون اضافة الى لفظ الجلالة ، فاذا قيل : نبى أو النبى ، فهم منها أنه نبى الله •

أما كلمة رسول ، فاذا كانت بدون « الـ » ، فلا تستعمل الا مضافة

---

(١٥) لقمان : ١٧ •

الى لفظ الجلالة ، فيقال : رسول الله ، فان قيل : رسول فقط ، بدون اضافته الى لفظ الجلالة ، فيحتمل أن يكون المراد رسول الله ، أو رسول غيره من الناس ٠

كذلك تتضمن كلمة نبى : الانباء بالغيب ، ولايكون هذا الا ان اصطفاه الله من عباده ، بخلاف كلمة « رسول » ، فانها لا تتضمن ذلك بلفظها ، بل بما يفهم منها ، من أنها تطلق — اذا أضيفت الى لفظ الجلالة — على من أنزل عليه الوحى ، وما دام ينزل عليه الوحى ، فقد ينبئه الله بغيب يبلغه للنـــاس ٠

وقد أرسل الله أنبياء — ورسلا — عديدة ، أخبرنا ببعضهم فـى القرآن الكريم ، ولم ينبئنا بالبعض الآخـر ، يقـول الله تعـالى : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينـا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا ٠ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما »** (١٦) ٠٠

ويقول : **« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليـك ومنهم من لم نقصص عليك »** (١٧) ٠٠

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم أسماء الأنبياء ، الذين اقتضت حكمته أن يبلغنا بهم ، وهم آدم ، وادريس ، وهود ، وصالح ، وابراهيم ، ولوط ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، ويونس ، وداوود ، وسليمان ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم ، وخاتمهم : محمد صلى الله عليه وسلم ٠

ويجب الايمان بهم جميعا ، فمن كفر بواحد منهم لا يكون مسلما ، لأن من شروط صحة الاسلام ، أن يؤمن الانسان بما نزل من الوحى على محمد ﷺ ، وقد نزل الوحى عليه ، مخبرا بأنهم أنبياء ، فمن لم يؤمن

---

(١٦) النساء : ١٦٣ ، ١٦٤ ٠ (١٧) غافر : ٧٨ ٠

بواحد منهم ، فقد أنكر نصا من القرآن الكريم ، ومنكر نص القرآن الكريم كافر ، يقول الله تعالى : ((**آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله**)) (١٨) ..

خلاصة القول : ن الله اصطفى من عباده من أنزل عليه الوحى ، وأمره بتبليغه للناس ، وسماه نبيا ، كما سماه رسولا ، فكل نبى رسول ، وكل رسول نبى ، فهما لفظان مترادفان ، يطلقان على من اصطفاهم الله ، وخصهم بوحيه ، وأمرهم بتبليغه ، وأنه قد قص علينا بعضهم فى القرآن الكريم ، وشاءت حكمته ، ألا يقص علينا البعض الآخر ، وأنه يجب الايمان بهم جميعا ، فمن أنكر واحدا منهم ، فقد كفر ، ومن كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فلنفسه ، وما ربك بظلام للعبيد .

* * *

١

---

(١٨) البقرة : ٢٨٥ .

obeikandl.com

١٦ — المعجزة والكرامـة

لقد بينا فى حديث سابق ، أن الانسان لا يستطيع بفعله ، أن يتوصل الى نظام للحياة ، يحفظ كيان الفرد والمجتمع ، ويضمن للناس السعادة ، والأمن ، والطمأنينة ، ولهذا كان لا بد من ارسال رسـل ، يبينون له ما عجز عقله عن ادراكه ، ويوضحون له ما خفى عليه .

وقد ادعى كثيرون لنفسهم هذه الصفة .. فزعموا أنهم مرسلون من الله ، وكانوا كاذبين فيما ادعوا ، حاولوا خداع الناس ، ليتبوأوا بينهم مركزا ، وينالوا جاها ، وليستغلوهم فى الأموال ، والأغراض ، ولكى يظهر الصادق من الكاذب ، ويتبين حقيقة المرسل حقا من الله ، من المدعى زورا وبهتانا ، أيد الله من أرسله بمعجزات ، تدل على أنه صادق فيما يقول ، وتوضح أنه مبلغ من الله فيما يخبر .

فالمعجزة : هى أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد من أرسله للناس ، كدليل على أنه صادق ، قد سماها القرآن الكريم آية ، أى علامة ، ودليل على صدق الرسول ، فيما يخبر به عن الله سبحانه وتعالى ، يقول الله فى كتابه العزيز : **« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون »**(١) ..

ويقول تعالى : **« وقال موسى يافرعون انى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل . قال ان كنت جئت بآيـة فائت بهـا ان كنت من الصـادقين »** (٢) .

أى ان كنت جئت بمعجزة ، تدل على أنك صادق ، فبينها لنا ان كنت صادقا فى دعواك النبوة ..

« فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين » (٣) .

---

(١) البقرة : ١١٨ .
(٢) الأعراف : ١٠٤ — ١٠٦ .
(٣) الأعراف : ١٠٧ ، ١٠٨ .

ولكى تكون المعجزة ملزمة للقوم ، فقد ظهرت على يد كل نبى آية من جنس ما برع فيه قومه ، ونبغوا فيه ، واشتهروا به ، لأن من يعرف أسرار العلم ، ويدرك جزئياته ، ثم يرى أن هناك من يستطيع الاتيان بظواهر خرجت عن قدرة أرباب هذا المجال ، يدرك أنه أمام ظاهرة تفوق قـوة البشر ، ظاهرة لا يستطيع الاتيان بها الا من كان مؤيدا ، ممن يملك الكون كله ، ويسيطر عليه ، ولهذا آمن السحرة ، حين رأوا عصا موسى تلقف ما صنعوه من سحر ، لأنهم عرفوا أنهم أمام عمل ، لا يقوى عليه انسان ، يقـول الله تعـالى ، مخبـرا رسـوله عن هـذه الحـادثة :

« فجمـع السحرة لميقات يوم معلوم • وقيل للناس هل أنتم مجتمعون • لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين • فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين • قال نعم وانكم اذن لمن المقربين • قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون • فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون • فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون • فألقى السحرة ساجدين • قالوا آمنا برب العالمين • رب موسى وهارون » (٤) •

آمن السحرة وصدقوا بأنه رسول من الله ، لأنهم أدركوا ، أن ما قام به ليس سحرا ، فهو خارج عن طاقة أى ساحر ، ولا يكون ذلك الا بتأييد من الله ، فهو صادق فيما يخبر به عن الله ، من أنه رسول ، أرسـل الى الناس ، ليبين لهم طريق الهدى ، ولينذرهم اذا هم ضلوا ، أو سلكوا طريق الشيطان •

كذلك كانت معجزة عيسى من جنس ما اشتهر به قومه ، وهو صناعة الطب ، فقد برعوا فيه ، وظنوا أنهم عرفوا كل صغيرة وكبيرة فى جسم الانسان ، فجاء عيسى عليه السلام ، وأظهر الله على يديه فى هذا المجال ، ما أفحمهم وأعجزهم عن الاتيان بمثله ، رغم أنهم أساتذة فيه ، فكانت ولادته من غير أب معجزة لهم ، يقول الله تعالى : **« قالت أنى يكون لى غلام**

---

(٤) الشعراء : ٣٨ — ٤٨ •

ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا • قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا » (٥) • •

وكان كلامه فى المهد معجزة ، يقول تعالى : « فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا • يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا • فأشارت اليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا • قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا » (٦) •

كذلك أبرأ الأكمه ، والأبرص ، وأحيا الموتى باذن الله ، يقول الله ، تعالى ، فى معرض الاخبار عن هذه المعجزة : « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون • ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل • ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » (٧) • •

ويقول : « اذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى »(٨) ••

وما يشاهد من ظهور عجائب على يد السحرة ، والكهان ، فليست من جنس الآيات التى أيد الله بها رسله ، بل هى عجائب ، بالنسبة لمن لم يعرف سرها ، لأنها قد تكون راجعة الى خفة اليد ، التى لا يراها الشخص العادى ، وقد تكون راجعة الى استخدام الساحر ، لأناس لا يبصرهم المشاهدون ، وقد تكون هناك خدعة بصرية ، أو ربما تكون راجعة الى

---

(٥) مريم : ٢٠ ، ٢١ • (٦) مريم : ٢٧ — ٣٠ •

(٧) آل عمران : ٤٧ — ٤٩ •• (٨) المائدة : ١١٠ •

تمتع بعض الأشخاص بقوى جسمية وروحية خارقة ، تمكنه من الاتيان بمثل هذه العجائب .

ومهما كان مصدرها ، فهى قوى محدودة ، لا يتمكن صاحبها من الخرج عن اطارها المحدود لها . ولا يعرف حدود هذه القوى ، الا من أوتى شيئا منها ، ولهذا عندما يفاجأ بعمل ، يتعدى الاطار المألوف لمن برع فى هذه الناحية ، فسرعان ما يدرك أنه أمام قوة تفوق قوة من يستعين بهم ، أو فى مواجهة قوة تطغى على امكاناته الخاصة ، التى تميز بها عن غيره . ومهما أتى هؤلاء من عجائب فان أكثرها كذبا وبهتانا ، يقول الله تعالى : ((**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون**)) (٩) . .

كذلك ما يأتى به الكاهن ، لا يدل على أنه صادق فيما يدعيه ، فقد افترى الكهان على الله ، وادعوا ما لم ينزل من السماء ، وكذبوا فيما أخبروا به ، فلا ينبغى أن يصدقهم المؤمن . فقد ثبت فى الصحيح ، أن النبى ﷺ سئل عن الكهان ، فقيل له : ان منا قوم يأتون الكهان ، قال : « فلا يأتوهم » وثبت عنه أنه قال : « من أتى عرافا فسأل عن شىء ، لم تقبل صلاته أربعين يوما » .

فمعجزات الأنبياء ، تختلف عما يأتى به الساحر والكاهن ، فالساحر له طاقات محدودة ، أما ما يظهر على يد النبى ، فلا حدود له ، لأنه من الله ، ذى القدرة المطلقة ، وأكثر ما يخبر به الكاهن كذب ، لأن الله لا يطلع على غيبة أحدا ، الا أن يكون رسولا ، وفى حدود ما يريد الله ابلاغه للناس ، يقول الله تعالى :

((**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم واحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا**))(١٠) .

فاذا كانت معجزات الأنبياء السابقين ، آيات مادية وقتية ، لا تلزم

---

(٩) الشعراء : ٢٢١ — ٢٢٣ .   (١٠) الجن : ٢٦ — ٢٨ .

الا من يراها ، فان معجزات محمد ﷺ ، آية خالدة ، باقية يدركها الناس جميعا ، على اختلاف العصور والأوطان ، فهى فى متناول كل انسان ، تلك هى القرآن الكريم ، الذى أنزله الله على محمد ﷺ ، تصديقا له فى دعواه يقول تعالى : « **أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** »(١١) •

ويقول : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »(١٢) ••

بقيت نقطة أخرى تتعلق بخوارق العادات ، الا وهى الكرامة ، التى اشتهر بين العامة أنها أمر يظهره الله على يد تقى تكريما له ، وحقيقة الأمر فى هذه المسألة ، أن كل من أدى الفرائض ، ونفذ الوصايا ، وسلك بين الناس مسلكا يرضى الله ورسوله ، فهو ولى ، لقوله تعالى : « **ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون • الذين آمنوا وكانوا يتقون** »(١٣) ••

ولا يكون تكريمه ، باظهار خوارق العادات على يديه ، لأنها خصائص النبوة ، ولم تظهر على يد الأنبياء الا عند الحاجة الى الزام المعارضين • فلم تكن عادة يومية • فاذا كان هذا وضعها بالنسبة للأنبياء ، فكيف نؤمن بظهورها على يد انسان عادى ، لم يقع عليه الاختيار ، ليبلغ رسالة عن الله ، فهو ليس بحاجة الى ما يؤيد صدقه ، انما تكريمه يكون بتوفيق الله له الى العمل الصالح ، وهدايته الى طريق النجاح ، فى مجالات الحياة المختلفة •

فان ظهر على يد انسان شىء غير مألوف ، فلا يعد هذا دليلا على تقواه ، قال موسى بن عبد الأعلى الصدفى : قلت للشافعى : ان صاحبنا الليث كان يقول : اذا رأيتم الرجل يمشى على الماء فلا تغتروا به ، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة • فقال الشافعى : قصر الليث رحمه الله،

---

(١١) النساء : ٨٢ •　　(١٢) الاسراء : ٨٨ •

(١٣) يونس : ٦٢ ، ٦٣ •

بل اذا رأيتم الرجل يمشى على المـاء ، ويطير فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تعرضـوا أمره على الكتـاب • أى أن مدار تقييم المؤمن ، هو السلوك الطيب ، والعمل الصالح ، لا ما يظهر على يديه من شىء ، قد يكون من عمل الشيطان ، مما يمارسه بعض أدعياء الولاية ، من سلوك أقرب الى البله منه الى سمت التقوى ، وصفات الصلاح ، وهو ليس من الدين فى شىء ، وما يردده بعض الناس ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : اطلعت على أهل الجنة ، فرأيت أكثر أهلها البله ، فلا يصح عن رسـول الله ﷺ ، ولا ينبغى نسبته اليه ، فان الجنة انما خلقت لأولى الألبـاب ، الذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم ، الى الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر •

وقد ذكر الله أهل الجنة ، وأوصافهم فى كتابه ، فلم يذكر فى أوصافهم البله ، الذى هو ضعف العقل •

وخلاصة القول : ان الكرامة ليست خارقا يظهره الله على يـد انسان، وانما هى تكريم الله للعبد ، بأن يوفقه الى الخير فى الدنيا والآخرة •

* * *

obeikandi.com

١٧ — وضع المعجزات الحسية فى الاسلام

فضل الله الانسان على سائر المخلوقات الحية ، فوهبه عقلا ، يستعين بـه على مواجهة ما يقابله من عقبات على مسرح الحياة ، وليكون هاديا له الى طريق الحق ، ومرشدا الى ما ينبغى أن يعمله ، سواء أكان ذلك فى مجالات الحياة المادية ، أو فيما يتعلق بالجانب الروحى فى حياة البشرية ، كالاهتداء الى العقيدة الدينية ، ومعرفة ما يتعلق بها من ايمان بالخالق ، وتصديق بالبعث والحساب ، ويقين بالثواب والعقاب ، ان عاجلا أو آجلا •

غير أن العقل وان أثبت مقدرته فى كثير من الجوانب العلمية ، التى تتعلق بمظاهر الطبيعة ، الا أنه عجز عن ادراك ما وراءها • كذلك لم يستطع أن يهتدى الى ما يصلح المجتمع فى جميع جوانبه ، بل انه أدرك بعض النواحى الاصلاحية ، وعجز عن ادراك كثير منها ، أى أنه كان جزئيا فى نظرته ، الى ما يصلح حياة الفرد والجماعة •

ولهذا أرسل الله رسلا ، بينوا له المنهج الشامل ، الذى يقود المجتمعات الى مافيه صلاحها فى جميع جوانب الحياة ، ووضحوا له الأسلوب الذى ينبغى اتباعه ، حتى لا يضل فى ساحات لا تعرف لها حدود ، ولا يهوى فى أودية لا يدرك لها قرار ، ولا يتردى فى قفار خاوية ، لا يصيبه منها الا الهلاك والدمار ، غير أن الناس من كثرة سماعهم لأصوات مختلفة ، تدعى الاصلاح ، ورؤياهم لرجال يلبسون ثياب المصلحين ، أنكروا على الرسل دعواهم ، لأنهم ظنوا أنهم مثل غيرهم ممن سلكوا هذا الطريق ، سعيا وراء شهرة ، أو طمعا فى الحصول على المال أو الجاه ، أو رغبة فى الوصول الى السلطة لاشباع غريزة التحكم والسيطرة •

ومن هنا كان لا بد من تأييد الرسل بمعجزات ، تميزهم عن هؤلاء حتى لا يختلط أمرهم بمن يدعون هذه الصفة كذبا وبهتانا ، وكذلك لاقامة الحجة على المنكرين ، حتى لا يكون لديهم ما يتعللون به لانكارهم ، كما أنها — أى المعجزة — أيضا :تثبيت لايمان من آمنوا ، واطمئنان لقلوبهم ،

وسكن لنفوسهم ، حتى لا يكون للشيطان منفذا اليها أو للعقبات التى تعترض طريق الدعوة تأثير فيها •

وقد أيد الله رسله بمعجزات حسية مختلفة ، فجعل معجزة كل رسول من جنس ما نبغ فيه قومه ، حتى تكون ألزم للخصم ، لأنها اذا كانت من جنس ما برعوا فيه ، ومع ذلك فاقت قدرتهم ، كان ذلك أدعى الى الاعتراف بأن هذا العمل لا يقدر عليه بشر • ويقص القرآن الكريم بعضا من هذه المعجزات التى أيد بها رسله ، فيقول عن معجزة موسى : **« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين • قال نعم وانكم اذن لمن المقربين • قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون • فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون • فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون • فألقى السحرة ساجدين • قالوا آمنا برب العالمين • رب موسى وهارون »**(١) • •

وكانت معجزة عيسى عليه السلام فى الميدان الذى اعتقد قومه أنهم أصحابه ألا وهو الطب ، يقول الله تعالى : **« اذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين »** (٢) • •

وهناك كثير من المعجزات الحسية التى أيد الله بها رسله ، كانفلاق البحر لموسى عليه السلام ، وانفجار العيون من الحجر ، بعد أن ضربه بعصاه ، ونزول المائدة من السماء لعيسى عليه السلام ، بل ان ولادته من غير أب لهى أكبر معجزاته الحسية ، فقد كانت تحد لأهل الطب فى عصره ، ولا زالت حتى اليوم •

غير أن المعجزات الحسية ليس لها تأثير اقناعى ، الا على من رآها وشاهدها بعينه ، أما من سمع بها ولم يرها ، فان نفسه تحدثه بعدم

---

(١) الشعراء : ٤١ — ٤٨ •   (٢) المائدة : ١١٠ •

تصديقها ، فيزعم أن رواتها غير صادقين فى نقل ما حدث ، بل ان بعض من رآها لم يصدقها ، زاعما أنها سحر ، وليست معجزة تؤيد صدق الرسول ، كما حدث مع عيسى عليه السلام ، اذ قال الذين كفروا منهم **«ان هذا الا سحر مبين»**(٣) ، وكما حدث مع موسى عليه السلام حين غلب السحرة ، اذ قال فرعون : **« أنه لكبيركم الذى علمكم السحر »**(٤) ..

لهذا كانت معجزة محمد ﷺ هى القرآن الكريم ، لأنه للبشر قاطبة . فى كل زمان ومكان ، فلا يتسنى للجميع رؤية المعجزة الحسية ، لو كانت هى الدليل على صدقه ، فالقرآن حجة على من رأى محمدا ﷺ ، ومن لم يره ، لأنه لا زال بيننا ، فيستطيع القاصى والدانى أن يقرأه ، ويدرك جوانب الاعجاز فيه ، فهو أبلغ من أى معجزة حسية ، لأنه لا يرد عليه ما ورد على المعجزة الحسية من أنه سحر ، فهو بيان وقواعد تشريعية ، لو طبقتها المجتمعات لاستقام أمرها ، ولا ينكر ذلك الا مأفون ، وهو لا وزن له فى عالم الرأى .

ولا مجال للتشكيك فى خبره ، كما هو الحال عند نقل المعجزة الحسية لمن لم يرها ، فهو أمامه بعناصره وقواعده ، لا يحتوى على ما يوهم بالشطحات الخيالية ، أو يوحى بالأخيلة البعيدة عن الواقع ، اذ لا يضم بين دفتيه صورة تخالف الواقع ، ولا خبرا يدل على أن محمدا ﷺ قد ظهرت على يديه معجزة حسية ، وما ذاك الا لأن الاسلام ركز على الجوانب العقلية فقط فى اقناع المخالفين ، لعموميتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

وما ورد فى الحديث من نبع الماء من بين أصابعه ، وبكاء الجذع الذى كان يخطب مستندا عليه ، ورد عين قتادة ، وغير ذلك من المعجزات الحسية ، فليست من الأخبار المجمع على صحتها ، ويزيدها ضعفا أنه لم يرد فى القرآن الكريم ما يماثلها ، مما يدل على أن المعجزات الحسية لا تعتبر عنصرا أساسيا فى مجال الدعوة الى الاسلام ، بل يجب الاقتصار على القرآن الكريم فقط ، فهو المعجزة الأولى والأخيرة ، وهو أبلغ حجة يعتمد عليها الداعية المسلم فى عصرنا الحاضر .

(٣) المائدة : ١١٠ .   (٤) الشعراء ٤٩ .

١٨ — عصمة الأنبياء وتنزيههم عما لا يليق

ان من الحقائق المسلم بها أن الانسان ، اذا أراد أن يبعث برسول ، أو يكلف شخصا بالقيام بعمل ما ، فانه يحاول أن يختار الأمين الصادق ، حتى يؤدى رسالته على وجهها الأكمل ، بدون تحريف أو تبديل أو تغيير • ولا يوجد انسان على وجه الأرض يسلك غير هذا المسلك ، فى اختيار رسله ، وممثليه ، والا كان قاصر الفكر ، عاجزا عن ادراك المبادىء الأولية فى فهم طبائع الأشياء : فاذا كان هذا هو الحال مع البشر فى اختيار من يمثلهم — وهم لم يبلغوا درجة الكمال فى الوجود — فما بالك مع الله ، المطلق الارادة ، الكامل فى ذاته وصفاته ، فمن يقع عليه اختياره ، فلا بد أنه يمتاز بصفة الصدق والأمانة ، ويتحلى برداء العفة ، والشرف ، ويمتاز بخلقه الطيب ، وصفاته الحميدة ، وبعده عن مواطن الشيطان ، وأماكن السوء ، فليس للشيطان عليه سبيل ، ولا يجد أعوان السوء عنده طريقا ، فهو محصن ، ضد كل ما من شأنه أن يخل بالشرف ، أو يخدش الكرامة ، أو يحط من الفضيلة ، ويطمس الأمانة ، أو ينتقص من الهيبة ويهز المكانة السامية فى نفوس الناس •

فاذا استعرضنا تاريخ من اصطفاهم الله من عباده ، وأرسلهم ليبلغوا رسالته ، لوجدنا أنهم كانوا أخيار البشر ، قبل الرسالة وبعدها ، سواء من ناحية السلوك ، أو من ناحية التكوين البشرى ، خلقا ، وهيئة ، فلم يكن فيهم من يعانى من علة خلقية ، أو يتصف بصفة تنفر الناس منه ، كذلك كان سلوكهم متميزا عن بنى قومهم ، فلم يشاركوهم فى ارتكاب المعاصى ، ولم يجاروهم فى عاداتهم ، التى تتنافى مع توحيد الله وتوقيره ، ولم يظهر على سلوكهم ما يشين ، أو يعيب ، يقول الله تعالى ، مخاطبا نبيه ﷺ : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (١) ••

ويقول : « **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** »(٢) ••

ويبين الله لنا أن الأنبياء جميعا من طبقة مصطفاة ، خالية من الشرور ،

---

(١) القلم : ٤ . (٢) آل عمران : ١٥٩ .

والآثام ، فيقول : « **ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض** »[٣] . .

ويقول : « **ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم** »[٤] ..

ويقول : « **يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين** » [٥] . .

ويقول : « **واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل ، وكل من الأخيار** » [٦] . .

فهذه الآيات ، تبين أن الرسل هم خيار خلق الله ، خلقا ، وسلوكا ، وهيئة ، وأنهم مفضلون على من عداهم ، والا اختار الله من يمتاز عليهم .

فاذا كان سلوك المصطفين قبل البعثة متميزا عن بنى قومهم ، فى جميع مجالات الحياة ؛ لأنهم أصدق الناس قولا ، وأحسنهم خلقا ، وأكثرهم عطاء ، وأوفرهم سخاء ، وأشدهم جرأة ، وأشجعهم فى ميدان القتال والنزال ، وأشدهم صلابة فى التمسك بالحق ، وعدم النزول عنه ، أو الرضا ببديل له ، وأبعدهم عن مواطن الشبه ، وأماكن اللهو والفسوق ، فلم يرتكبوا كبيرة ، ولم يميلوا الى اقتراف صغيرة ، بل كانوا أناسا عملهم يعتبر قدوة ، فكلامهم حكمة ، ورأيهم سديد يجب الأخذ به ، ونصيحتهم مبدأ ينبغى الالتزام به .

اذا كان هذا شأنهم قبل البعثة ، فهم بعد أن اصطفاهم الله ، وكلفهم بتبليغ رسالته ، أحرى أن يكونوا المثل الأعلى فى الفضائل كلها ، والنموذج المحتذى فى كل ما يجب على المرء عمله ، أو اجتنابه ، فعملهم

---

(٣) آل عمران : ٣٣ ، ٣٤ .
(٤) البقرة : ٢٤٧ .
(٥) الأعراف : ١٤٤ .
(٦) سورة ص : ٤٥ — ٤٨ .

بعد البعثة ، مؤيد من الله ، وتحت رقابته ، لأنهم كما يبلغون عن الله أوامره بالقول ، فهم يرشدون الناس أيضا الى ما ينبغى عمله بالفعل ، فكل أعمالهم تبليغ من الله لعباده ، ولذلك يقول الله تعالى : **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر »** (٧) ٠٠

ويقول : **« قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه »**(٨)٠٠

ولهذا كانوا معصومين من الخطأ ، عصمهم الله منه ، كى يبلغوا أوامره لعباده دون تغيير ، أو تحريف ، فلا يرتكبون خطيئة ، ولا يقترفون معصية ؛ ولا يميلون الى شر أبدا ، ولا يرضون بشىء يتنافى مع الشرف ، والكرامة ، والفضيلة ، لأنهم أمناء على وحى الله ، فالأمانة شرط لتكليف بالتبليغ ، لأن التبليغ لا يكون صحيحا ، الا اذا كان النبى معصوما من الخطأ ، حتى لا يختلط خطؤه بما أمر تبليغه ، فالأنبياء معصومون من الخطـأ ، كى يصل الوحى سليما الى الناس •

وما يقال من أن النبى ﷺ جانبه الصواب فى بعض ما أشار به ، وما اتخذه من اجراءات ، فلم يكن سوى تشريع أراده الله سـبحانه وتعالى ، وبيان ذلك : أنه لما نزل بالمدينة رأى أهلها يأبرون النخل ، أى يلقحونه ، فقال لهم : لم تفعلون ذلك ؟ •• اتركوه فان شاء الله أثمر ، وان لم يشأ لم يثمر ، فترك الناس عملية التلقيح ، بناء على هذه النصيحة ، فلم يثمر النخل فى هذا العام ، فأتوا رسول الله ﷺ يسألونه ، أهو وحى أم رأى ؟ أى هل كان ما أشار به عليهم من وحى الله ، أمره بتبليغه اياهم، أم هو اجتهاد شخصى ؟ فقال لهم : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » أى أن ما يتعلق بمثل هذه الأمور من زراعة وصناعة وغير ذلك من شئون الحياة ، هى من الأمور التى تركها الله للعقل ، يبدع فيها بقدر ما يستطيع ، ولا يتدخل الدين فيها ، الا بقدر المحافظة على كيان الفرد والأمة ، وعليه فلن يكون هذا الأمر الا لبيان ما ينبغى عمله فى مثل هذه الأشياء ، التى تتعلق بالتقدم والرقى ، فقد أشار الاسلام عن طريق هذه الحادثة ، الى أنـه أعطى الحرية فيها للفكر ، يبتدع فيها ما شاء خياله ، بشرط ألا يقترف اثماً ، أو يهدد كيان المجتمع الانسانى •

---

(٧) الأحزاب : ٢١ .　　(٨) الممتحنة : ٤ .

ومن هذا يتبين ، أن الله أراد بهذا التصرف من النبى ﷺ تشريعا ، وتقنينا لأسلوب الحياة ، فى مثل هذه المجالات .

والحادثة الأخرى ، التى يستدلون بها ، على أن النبى ﷺ خالف الأولى ، وهى مسألة أسرى بدر ، فقد روى أى رسول الله ﷺ استشار أصحابه ، فيما ينبغى عمله مع هؤلاء الذين وقعوا أسرى فى يد المسلمين ، فى معركة بدر ، فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله .. اضرب أعناقهم .. فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس ان الله قد أمكنكم منهم ، وانما هم اخوانكم بالأمس » فقام عمر فقال : يا رسول الله .. اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد النبى ﷺ فكرر عليهم ما قاله ، فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فقال : يارسول الله .. أرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء .

فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ، ما كان فيه من الغم فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء ، فنزل قول الله تعالى : « **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** » (٩) ..

فلم يكن هذا سوى تشريع لمن يأتى بعده من حكام المسلمين . اذ يؤخذ منه ، أن على الحاكم أن يستشير أهل الرأى فى مثل هذه الحالات ، فلا يستبد برأيه ولا يتخذ قرارا ، دون الرجوع الى من هم فى موقع المشورة ، ثم عليه أن يتخذ ما يراه صالحا للمسلمين ، ويتمثل هذا فى عصرنا الحاضر فى رأى الأغلبية ، فهو أولى بالاتباع من رأى الفرد ، مهما كان مركزه فى الدولة ، ومن رأى الأقلية ، وان كان العقل يميل اليه ، لأن استطلاع الرأى ، اذا سار فى قنواته الطبيعية ، وبعد عن التهديد ، والتلويح ، والبطش ، والتنكيل ، كانت نتيجته معبرة عن المصلحة العامة ،

---

(٩) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨ .

لأنه لا يمكن أن تكون الأكثرية خاضعة لهوى ، او واقعة تحت مؤثرات شيطانية .

وخلاصة القول : ان الأنبياء هم صفوة الخلق ، فقد كان سلوكهم قبل البعثة قويما ، وبعد البعثة مطيعا لأوامر الله ، فلم يرتكبوا معصية ، ولم يقترفوا اثما ، ولم يتصرفوا الا طبقا لوحى الله ، وما بدا مخالفا لهـذا ، فهو تشريع للناس ، وبيان لهم بهذا الاسلوب الذى ارتضاه الله لحكمة يعلمها هو ، قد تكون للتعليم ، وقد تكون لبيان أن المنزه تنزيها مطلقا هو الله ، أما الأنبياء فهم تحت رعاية الله وحفظه ، فان فعلوا ما ليس مطلوبا نزل الوحى بتصحيح عملهم ، وقد يكون غير ذلك ، وما يجـب علينا الايمان به : هو أنهم معصومون من الخطأ ، حفظا لوحى الله ، ووقاية لشرعه ، يقول الله تعالى : **« انا نحن نزلنـا الذكر وانـا لـه لحافظون »**(١٠) . .

أى أن الله حفظ الوحى من التغيير والتبديل ، حتى وصل الـى عباده ، . . فالملك الذى هو أمين عليه ، لا يعصى الله فيما أمر به فهو ممن قال الله فيهم : **« لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »** (١١)..

ومن نزل عليه الوحى ، وأمر بتبليغه ، ـ وهم الأنبياء والرسل ـ أناس ميزهم الله عن بقية عباده بالخلق الطيب ، والصفات الحسنة ، وحفظهم من الوقوع فى مدارك الهوى ، ومسالك الشيطان ، وعصمهم من الخطأ ، فأدوا أمانته للناس كاملة ، وعلموهم وحيه بصدق وأمانة ، فرضى الله عنهم ، ورضوا عنه . والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فهو بكل شىء عليم .

* * *

---

(١٠) الحجر : ٩ .

(١١) التحريم : ٦

١٩ ـ موقف كل رسول مما سبقه من الرسالات

خلق الله الانسان فى أحسن تقويم ، فميزه على سائر المخلوقات ، بالقدرة على التفكير ، أى منحه عقلا يفكر به فيما حوله • ومن شأن العقل ، الذى يحاول فهم الأشياء المحيطة به ، واخضاعها له لينتفع بها ، ويسخرها لنفسه ، أن تقوده هذه الديناميكية الفكرية ، فيما يحيط به ، الى الوصول الى مصدر الخلق ، وتهديه أبحاثه الى الاعتراف بأن هناك خالقا مسيطرا على جميع هذه المخلوقات ، ولكن العقل بما عرف عنه من عجز ، وتقصير ، لا يصل فى كل الحالات الى هذه النتيجة ، ومن هنا أرسل الله ، من يهديه الى الطريق المستقيم ، فاختار أناسا من عباده ، ليحملوا وحيه الى هذا الانسان ، الذى عجزت قدرته الفكرية عن الوصول الى الحق ، فكانت مهمة الرسل بيان التوحيد ، وتبليغ الناس قواعد الدين وأحكامه وشرائع الله ووصاياه ، كى يسيروا على طريق يهديهم الى السعادة فى الدنيا ، والفلاح فى الآخرة •

ولما كانت حياة كل رسول محدودة بزمن ، فقد اقتضت الظروف أن يحمل أمانة كل رسول أناس ، تفرغوا لهذا العمل ، فكانت مهمتهم تبليغ الأجيال اللاحقة ، ما أوحى الى الرسول ، وتعليمهم اياه وشرحهم لهم ، وبيان ما غمض عليهم منه ، وتأويل ما تدعو الظروف الى تأويله ، فهؤلاء هم الذين اصطلح على تسميتهم برجال الدين ، أى هم الذين وهبوا حياتهم لخدمة الرسالة وصيانتها من الضياع ، أو التبديل ، والتحريف •

غير أن هذه الطائفة لم تسلم من عوائد الزمن ، وتقلب الدهور ، ولم تنج من مؤامرات المنحرفين ، وضلالات المخادعين ، فاندس فى صفوفهم أناس ، لبسوا مسوح الدين ، وارتدوا رداء الكهانة ، ولكنهم كانوا أبعد الناس عن شريعة الله ، بل كانوا أشدهم فتكا بها ، وأكثرهم ضررا بتعاليمها ، وأبعدهم عن روح التشريع ومضمون الرسالة ، فطفقوا يبدلون ثوبها ، ويشوهون وجهها ، ويمحون ملامحها الأصيلة ، تارة بالتبديل والتحريف ، وأخرى بالتأويل البعيد عن منطوقها ومفهومها ،

وساعدهم على ذلك بعد الزمن ، الذى نزل فيه الوحى على الرسول ، وتآمر أصحاب السوء ضد الدين ، وتكالب العامة على الشهوات والملذات ، وازدياد عدد من يعرضون عن الدين ويتنكرون له ، كل هذا جعل الدين فى المجتمع غريبا ، وصير المتمسكين به ، يتوارون عن أعين الناس ، لأنهم شعروا بالغربة ، فاستولى عليهم اليأس ، وظنوا أن العالم أصبح قاب قوسين أو أدنى من الهلاك ، وأن الأمل فى اصلاحه بات بعيدا جدا ، اللهم الا أن يرسل الله رسولا ليجدد رسالته ، ويمحو ما ران عليها ، من ضلالات المنحرفين من رجال الدين ، والمتآمرين على الأخلاق من الماديين ، وأصحاب المصالح الدنيوية •

فاذا وصل الأمر الى هذا الحد ، أرسل الله رسولا ، ليصحح للناس ما حرف ، وليوضح لهم ما غمض عليهم تفسيره ، وليبين لهم الصواب فيما اختلفوا فيه ، فكانت رسالة كل رسول ، هى تصحيح الأخطاء التى ظهرت فى المجتمع ، عقب رحيل الرسول الذى سبقه ، ولهذا كان موقف كل رسول مما قبله ، هو اعادة تبليغ الناس بالوحى ، الذى نزل على من سبقه ، اذ أن كل الرسالات واحدة • يقول الله تعالى : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا »** (١) • •

ويقول : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »**(٢) ••

فما أوحى الى الرسل واحد •• وما شرع لأقوامهم متطابق •

ومن هنا كان موقف كل رسول مما قبله ، هو تأكيد رسالته ، وتجديد ما نزل عليه ، وتصحيح الأخطاء التى وقع فيها الأتباع ، بعد رحيل الرسول الذى سبقه فى هذه الحياة ، ولهذا أمر كل رسول أتباعه بأن

---

(١) النساء : ١٦٣ •

(٢) الشورى : ١٣ •

يؤمنوا برسالة من قبله ، لأنها رسالته ، ومن لم يؤمن بها ، لا يصبح في عداد المؤمنين به ، فمن كفر بأحد الرسل السابقين ، يكون كافرا ، لأن الايمان بالرسل السابقين،ركن أساسي،من أركان الايمان،يقول الله تعالى: **« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »** (٣) ..

فمن كان على دين رسول ، وأدركه آخر ، فلا بد أن يؤمن به ، كذلك من آمن برسول ، فيلزمه الايمان بكل الرسل الذين سبقوه ، فاليهودي الذي أدرك المسيح عليه السلام ، يلزمه الايمان به ، فان لم يؤمن فهو كافر ، والنصراني الذي أدرك محمدا ﷺ ، مكلف بالايمان به ، فاذا لم يؤمن به ، فهو كافر ، كذلك على النصارى ، الذين وجدوا قبل مبعث محمد ﷺ ، الايمان بكل نبي سبقهم ، فان أنكر واحد منهم رسولا ، فهو كافر .

كذلك المسلم مكلف بالايمان بكل الرسل السابقين ، الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، فمن أنكر واحدا منهم ، فليس مسلما .

يقول الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »** (٤) .

فاذا أنكر الرسول ما بقي في أيدي الناس من بقايا الوحي ، الذي نزل على الرسل السابقين ، فليس هذا انكارا لمن سبقه ، وانما هو بيان للناس ، أن ما يتمسك به هؤلاء ، لم يأت به رسول ، وانما هو تحريف للوحي ، الذي أنزله الله على رسله ، وصورة ممسوخة للرسالة ، التي تركها الرسل السابقون . ومهمته تصحيح ما حرف ، وتقويم ما اعوج ، وبيان ما اختلف فيه الناس ، بعد رحيل رسلهم عنهم ، واخبارهم بأصل الرسالة ، كما نزلت على رسله ، وبوحي الله ، كما بلغه الله لهم ، ليعلموا الناس ، ويرشدوهم ، الى الطريق المستقيم ، يقول الله تعالى :

---

(٣) البقرة : ٢٨٥ . (٤) النساء : ١٣٦ .

obeikandi.com

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفــون من الكتاب ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين • يهدى بــه الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » [٥] • •

ويقول : **« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصــدقا لمــا بين يديه من الكتاب »**[٦] • •

فالقرآن الكريم مصدق لما سبقه من كتب ، أي يعترف بأنها كانت وحياً سماوياً من الله ، وشريعة يجب اتباعها ، غير أن الأجيال ،التى أعقبت رحيل الرسل ، بدلوها وحرفوها ، فأرسل الله رسلا لتصحيحها ، فلو فرض أن الرسالات السابقة لم تحرف، لوجدنا تطابقا بين ما فى أيدى أتباع الرسل السابقين ، وبين القرآن الكريم ، ولربما ــ وهذا مجرد فرض ــ لم ينزل ، لأنه لم يكن هناك داع لنزوله ، ولهذا كانت رسالة محمد ﷺ آخر الرسالات ، لأن الله حفظها من التحريف والتبــديل ، فقــال تعــالى : **« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »**[٧] ••

فلم تعد هناك حاجة الى ارسال رسول بعده ، لأن ما يريد الله تبليغه لنا لازال بين أيدينا،كما أنزل على محمد ﷺ،لم يدخله تحريف ولم يصبه تغيير •

ومن هذا كله يتبين : أن كل رسول معترف برسالة من سبقه ، ومؤمن بما أنزل عليه من تعاليم وأحكام ، وأن الايمان بمن سبقه ، من رسل شرط أساسى فى تعاليمه التى ينادى بها ، ويطالب من الناس الاعتراف بها ، وتطبيقها فى حياتهم ، وما يبدو من المخالفة، بين ما نزل عليه وبين ما فى أيدى الناس ، من تعاليم دينية ، فمرجعه أن الناس قد حرفوا رسالة من سبقه وغيروها ، ولهذا ، فهو يدعوهم الى الايمان بما نزل عليه ، لأنه تصحيح لما فى أيديهم من أحكام دينية ، وشرائع يدعون أنها من الله ،

---

(٥) المائدة : ١٥ ، ١٦ •
(٦) المائدة : ٤٨ .
(٧) الحجر : ٩

ولست سوى تحريف لرسالات السماء ، جاء الاخبار عنه ، فى قوله تعالى : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين »[٨]..

وقوله : «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا »[٩] ..

وقوله : « وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »[١٠] ..

* * *

(٨) النساء : ٤٦ ..
(٩) البقرة : ٧٩ .
(١٠) آل عمران : ٧٨ .

obeikandl.com

٢٠ ـ الكتب المقدسة وكيف وصلت الينا

أرسل الله رسله الى الناس ، ليبلغوهم رسالات ربهم ، ويعلموهم شرائعه ، وأحكامه ، وليبينوا لهم طريق الهــدى ، ويأمروهم باتباعه ، وطرق الضلال ، ويطلبون منهم اجتنابه ، وقد قص القرآن الكريم كثيرا من أخبار تلك الرسل مع قومهم ، ولكنه لم يخبرنا بكل ما يتعلق برسالات الله الى الناس • يقول الله تعالى : « **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** »[١] ••

ومن مقتضيات كل رسول أن ينزل عليه الوحى ، الذى يتضمن كل التعاليم المكلف بتبليغها لبنى قومه ، ولكى لا تضيع بعد رحيله عن هذه الحياة ، فقد دون كل رسول ما نزل عليه من الوحى ، ليكون المرجع لمن يأتى بعده من أجيال ، وليصبح المصدر الرئيسى لتشريعاتهم وقوانينهم ، وأطلق عليه « الكتاب المقدس » ولم يخبرنا القرآن الكريم الا عن كتب أربعة من الكتب السابقة وهى : صحف ابراهيم التى جاء ذكرها فــى قوله تعــالى : « **ان هــذا لفى الصــحف الأولى • صحف ابراهيــم وموسى** »[٢] ••

وتوراة موسى كما أخبر عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** »[٣] ••

وزبور داوود ، حيث جــاء فى كتابه العزيز : « **وآتينا داوود زبــورا** »[٤] ••

وانجيل عيسى الذى تحدث عنه القرآن الكريم ، فقال : « **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لمــا بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور** »[٥] ••

وآخر ما نزل من وحى الله لعباده هو القرآن الكريم ، يقول الله تعالى : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين**

---

(١) غافر : ٧٨
(٢) الأعلى : ١٨ ، ١٩
(٣) المــائدة : ٤٠:
(٤) النســاء : ١٦٣
(٥) المــائدة : ٤٦

openkandil.com

يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا • وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما »(٦) •

غير أن أصول الكتب المقدسة ، التى نزلت قبل القرآن الكريم قد فقدت ، فتناقل الناس تعاليمها شفاها ، أى أن روايتها للأجيال اللاحقة كانت عن طريق السماع ، وهو أمر فتح الباب على مصراعيه ، لدخول أفكار فيها ، لا تمت الى الوحى بصلة ، واختلاط تعاليم غريبة عن رسالات السماء بوحى الله ، واستمرت رواية الصحيح والدخيل ، تنتقل من جيل الى جيل ، حتى عصر متأخر جدا من عصر نزولها على الرسل ، ثم دونت بما علق بها من تحريفات وتغييرات • فلو ألقينا نظرة على ما بين أيدينا اليوم ، من كتب مقدسة ، لوجدنا أنها تنحصر فى اثنين وهما : العهد القديم والعهد الجديد •

ويضم العهد القديم كتب موسى الخمسة : وهى : التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية ، وهى معروفة باسم التوراة • وقد أضيفت اليها أسفار أخرى ، حتى بلغ جميع عدد أسفار العهد القديم ٣٩ سفرا ، عدا بعض الأسفار التى اختلف فى نسبتها الى هذا الكتاب المقدس ، وقد كتب كثير من علماء الأديان فى أسانيد العهد القديم ، فذكروا اختلاف النصوص ، وتضاربها ، وضياع النسخ الأصلية •

ولما كان وقت هذا الحديث يضيق عن شرح هذه المسألة المعقدة ، فسوف نكتفى بما قاله « أدموند جاكوب » اذ يشير فى أبحاثه الى أنه فى بداية تدوين هذه الأسفار ، لم يكن هناك نص واحد فقط • بل كان هناك تعدد فى النصوص ، ففى القرن الثالث قبل الميلاد كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبرى للتوراة ، ثم ظهر اتجاه فى القرن الأول قبل الميلاد ، الى تدوين نص واحد ، ولكن تدوين نص الكتاب المقدس ، لم يتم الا فى القرن الأول بعد الميلاد • ثم يضيف قائلا : ان أقدم نص عبرى موجود الآن يرجع عهد تدوينه الى القرن التاسع بعد الميلاد •

---

(٦) الأسراء : ٩ ، ١٠

وهذا يدل على أن أسانيد ما جاء فى العهد القديم غير متواترة ، فلا تعتبر دليلا قاطعا على أنها وحى من الله سبحانه وتعالى ، كذلك الحال أيضا بالنسبة للانجيل ، اذ لم يصلنا شىء مما أنزله الله على عيسى عليه السلام ، وانما الموجود بين أيدينا اليوم ، هو تعبير عن وجهات نظرأولئك الذين تصدوا لكتابة الأحداث التى باشرها عيسى ؛ وقد تم تدوينها فى عصر متأخر عن حياة عيسى عليه السلام • وقد عبر « موريس بوكاى » عن هذا فقال : ان الأناجيل التى أصبحت رسمية فيما بعد ، لم تعرف الا فى عصر متأخر ، على الرغم من أن تحريرها قد تم فى بداية القرن الثانى ، وطبقا للترجمة المسكونية ، فقد بدأ ذكر الروايات التى جاءت فى هذه الأناجيل فى نحو منتصف القرن الثانى ، ولكن يكاد يكون من العسير معرفة ما اذا كانت هذه الاستشهادات قد تمت بعد الرجوع الى النصوص المكتوبة ، أو أنهم — أى الكتاب — قد اكتفوا بذكر أجزاء من التراث الشفوى ، اعتمادا على الذاكرة •

أضف الى هذا ، أن كثيرا من الكتاب كتبوا أناجيل ، بلغ عددها أكثر من مائة ، ولكن الكنيسة لم تعترف الا بأربعة فقط ، وهم : متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وقد ذكر النقاد أن لوقا ومرقس لم يكونا من تلاميذ المسيح عليه السلام ، كما شكوا فى نسبة انجيلى متى ويوحنا اليهما ، ومما قاله النقاد بعد بحث نصوص الأناجيل الموجودة بين أيدينا الآن أن دراستهم قادتهم الى أنهم لم يعودوا متأكدين على الاطلاق من أنهم يقرأون كلمات السيد المسيح فى هذه الأناجيل ، وأن من الخطأ الاعتقاد ، بأن الاناجيل قد شكلت — بمجرد تدوينها — الكتب المقدسة الاساسية للمسيحيين ، وأنه كان يعتمد عليها فى بيان رسالة المسيح اعتمادا أساسيا ، لأن السلطة لم تكن لهذه النصوص فى ذلك الوقت ، بل كانت للتراث الشفهى ، الذى كان ينقل أقوال المسيح وتعاليم الحواريين ، ولم تأخذ الأناجيل الصفة الرسمية فى الاعتماد عليها الا بعد عام ١٧٠ م •

هذا هو حال الانجيل ، فلم يختلف عن حال التوراة فى صحة

الأسانيد وتواترها • كذلك لم نسمع عن وجود نص موجود لصحف ابراهيم ، ولم تحدثنا الروايات عن زبور داوود ، اللهم الا ما ورد فى أسفار العهد القديم ، تحت اسم مزامير داوود • وصحة نسبتها اليه لا تختلف عن صحة نسبة التوراة الى موسى عليه السلام ، وعليه •• فليس هناك كتاب مقدس من الكتب التى نزلت قبل الاسلام ، يعتمد عليه ، لأن رواياتها مشكوك فيها ، فلم يبق صحيحا غير القرآن الكريم ، فروايته تختلف عن رواية كل الكتب السابقة عليه ، اذ ثبت أن الوحى كان يكتب بمجرد نزوله على النبى ﷺ ، فكان يكتبه من يستطيع الكتابة من الصحابة ، أو من اختاره رسول الله ﷺ منهم لكتابته ، نذكر منهم على سبيل المثال : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، والزبير ، ومعاوية ابن أبى سفيان ، وحنظلة بين الربيع الأسدى ، وهم جميعا من المهاجرين ، كانوا يقومون بكتابة ما ينزل من القرآن الكريم ، اما وقت نزوله فى حضرتهم باملاء رسول الله ﷺ ، واما بعد ذلك باملاء رسول الله من حفظه ، اذا كان نزوله فى غير حضرتهم ، وقد انضم الى هؤلاء الكتبة المهاجرين ، كتبة آخرون من الأنصار بعد هجرته ﷺ الى المدينة ، فشاركوهم فى كتابة ما كان ينزل عليه ﷺ من القرآن فى المدينة ، نذكر منهم : أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وآخرين ممن بلغ بهم عدد كتبته ﷺ على أكبر الروايات احصاء : ٤٣ كاتبا •

كذلك تميزت عقلية العرب بحفظ النصوص ، اذ كانت مدربة بحكم ظروفها على ذلك ، لأنهم كانوا يحفظون الشعر ، ويتناقلونه شفاها ، فساعدهم ذلك على حفظ نصوص القرآن الكريم ، ونتيجة ذلك أن رسول الله ﷺ حين لحق بالرفيق الأعلى كان القرآن جميعه محفوظا فى الصدور بأحرفه ، ومدونا جميعه على الوضع الذى نزل به على رسول الله ﷺ ، دون زيادة أو نقص ، أو دون تغيير أو تبديل ، أو تحريف •

وبعد انتقال الرسول ﷺ الى الرفيق الأعلى، هيأ الله للقرآن الكريم وسيلة حفظه الى الأبد ، فقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه ، كلف زيد بن ثابت بجمع القرآن الكريم ، فجمعه من صدور الرجال ، ومما كتب

فيه ، ثم وضعت النسخة الكاملة عند أبى بكر ، حتى توفاه الله ، ثم كانت عند عمر مدة حياته ، ثم كانت عند حفصة رضى الله عنها ، ويدل هذا العمل، على العناية البالغة التى ظفر بها جمع القرآن الكريم فى عهد أبى بكر ، فقد كان زيد بن ثابت ذا مواهب وخصائص لم تجتمع فى غيره ، اذ أنه كان من كتاب الوحى ، ومن حفاظ القرآن الكريم ، وكان معروفا برجاحة عقله ، وأمانته ، وشدة ورعه ، وتفوقه فى الكتابة ، وكان مساعدوه فى هذا العمل من خيرة الصحابة ، علما به ، وحفظا له ، ومن أشدهم تقوى ، وورعا وصلاحا •

ومن هذا يتبين : أن الكتاب المقدس الوحيد الذى سلم من التغيير والتبديل ، هو القرآن الكريم ، يقول الله تعالى : **« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »**(٧) ••

فهو المرجع الصحيح لوحى الله ورسالته ، فينبغى على كل انسان أن يرجع اليه ، مستلهما طريق الهدى ، ومستخرجا القوانين والشرائع التى يتخذها المجتمع دستورا له ، يحميه من تقلبات الدهر ، وعواصف الأفكار البشرية الضالة •

* * *

(٧) الحجر : ٩ •

٢١ ـ هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من كتب مقدسة

بينا فى حديث سابق ، أن أصول الكتب السماوية التى نزلت قبل القرآن الكريم قد فقدت ، وما يوجد الآن بيننا لم يدون الا فى عصور متأخرة عن الأزمان التى نزلت فيها على الرسل عليهم السلام ، ولهذا فقد ضمت فى نصوصها أفكار كاتبيها ، والتصورات الدينية التى كانت فى عصور تدوينها ، وقد اختلطت هذه الأفكار بالوحى ، بحيث أصبح من المتعذر على المفكرين الدينيين ، تمييز الوحى فيها من الدخيل عليه ، بل يكاد يكون من المستحيل ، الجزم بأن هذا النص وحى ، وذاك فكر انسانى لحق بالوحى على امتداد العصور .

وقد اهتم كثير من علماء الأديان ، والباحثين فى علوم اللاهوت ، بدراسة الكتب المقدسة السابقة على القرآن الكريم ، من الناحية التاريخية ، والمنهجية ، وتوصلوا فى أبحاثهم الى أن هذه الكتب ليست وحيا كلها ، لأنها تضمنت معلومات تاريخية غير صحيحة ، واشتملت على أخلاقيات تتنافى مع روح الوحى الصحيح ، ومن المستبعد أن يخبر النبى بشىء مخالف للواقع ، لأنه يتلقى من الله ، وهو بكل شىء عليم ، كما أنه من المرفوض عقلا ، أن يبلغ الناس أحكاما لا تتفق مع روح الدين ، أو يرتكب أعمالا تتعارض مع المبادىء الدينية .

ولهذا أخبر القرآن الكريم ، بأن هذه الكتب قد فقدت حجيتها ، لأنه اختلط فيها الحق بالباطل ، فيقول الله تعالى : « **يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** »(١) .

ويقول : « **وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** » (٢) ..

ويقول : « **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه** » (٣) ..

---

(١) آل عمران : ٧١
(٢) آل عمران : ٧٨
(٣) المـائدة : ١٣

غير أن بعض الناس يزعم أن القرآن الكريم قد شهد بصحة التوراة والانجيل ، ويستدلون على هذا الزعم بقوله تعالى : **« كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فاتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين »**(٤) ..

وقوله : **« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله »**(٥) ..

وقوله : **« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه »**(٦) ..

فيقولون : ان هذه الآيات تدل على أن ما فى التوراة والانجيل صادق ، ويجب اتباعه .

وغاب عن هؤلاء اخبار القرآن الكريم فى أكثر من آية ، أن التوراة والانجيل قد دخلهما تحريف وتبديل ، ولبيان ما قد يبدو بين هذه الآيات التى تدعو الى تنفيذ ما فى التوراة والانجيل من أحكام ، وبين الآيات التى تخبر بأنهما محرفين من غموض نقول :

لا شك أنه قد ثبت بالدليل القاطع ، أن التحريف قد أصاب هذين الكتابين المقدسين ، كما أخبر القرآن بذلك ، ولكن ليس معنى هذا أن كل ما فيهما محرف من الألف الى الياء ، فهذا لا يقول به قائل ، وانما اختلط المحرف بالصحيح ، بحيث أصبح من المتعسر التمييز بينهما ، فاذا أخبر القرآن الكريم ، بأنهما محرفين فهو صادق ، لما نرى من أدلة واضحة ، وقاطعة على هذا التحريف ، واذا أشار فى بعض آياته الى أن فيهما هدى ونور ، أو أنه يجب على اليهود والنصارى الالتزام بما فيهما من أحكام ، وتطبيق ما فيهما من قوانين شرعها الله ، فانما يقصد القرآن بذلك ، تلك الفقرات التى لم يعتريها التحريف ، أو يلحقها تغيير أو تبديل .

ولما كان التمييز بين كلا النوعين عسيرا — أى أن معرفة المحرف من غير المحرف ليس فى طاقة البشر ، مهما بلغت قدرته فى مجال العلوم الدينية — فقد أصبح من اللازم ، الرجوع فى ذلك الى مصدر لا يرقى

---

(٤) آل عمران : ٩٣

(٥) المائدة : ٤٣

(٦) المائدة : ٤٧ .

اليه شك ، ويكون له من المكانة ، ما يجعله قادرا على القيام بهذا العمل دون أدنى شك ، ولا يتحقق ذلك الا فى القرآن الكريم ، فهو وحى الله الذى سلم من التحريف ، والتغيير .

وعليه فما وافق القرآن الكريم من فقرات التوراة ، والانجيل ، فهو صحيح ، وما ظهر أنه مخالف لما فى القرآن الكريم ، فهو الـذى دخله التحريف ؛ أى أن القرآن الكريم يعتبر بمثابة الأصل الذى يراجـع عليه ما فى التوارة والانجيل ، لنتبين الصحيح ، والمحرف فيهما .

وهذا هو مفهوم هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من كتب مقدسة ، ذلك أن رسالة الله واحدة فى كل العصور والأزمان .

فاذا جاء القرآن بشىء ، ولم يوجد ما يقابله فى التوراة والانجيل ، فمعنى ذلك أنه حذف ، أو أهمل وترك ، فلم يذكر فى نصوصهما .

واذا ثبت فى القرآن شىء يخالف ما فى التوراة والانجيل ، فمعنى ذلك أن ما فيهما قد حرف وبدل ، وهذا هو ما أشار اليه القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : **« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق »**(٧) .

أى وأنزلنا اليك القرآن الكريم ، مصدقا لما سبقه من كتب مقدسة ، وهى التوراة والانجيل ، ومهيمنا عليهما ، أى أنه صاحب هيمنة ورقابة وحجية ، بحيث يكون ما فيه هو الفيصل ، اذا كان ما فى التوراة والانجيل يخالفه .

ولهذا فاحكم يا محمد بين أهل الكتاب بما أنزل عليك ، أى بالقرآن ، ولا تتبع أهواء أهل الكتاب ، وهو ما ينسبونه الى التوراة والانجيل ، فهو يختلف عما نزل به الوحى فى القرآن حقا وصدقا ، وعليه فينبغى أن يكون القرآن وحده ، هو الركيزة الأولى فى الرقابة والهيمنة على هـذين الكتابين ، ويكون هو وحده المرجع فى الحكم ، لأن ما يقرره هو وحى

---

(٧) المـائدة : ٤٨

الله ، الذى لم يلحقه تغيير ، ولا تبديل ، فلم يختلط فيه وحى السماء بأفكار الأرض •

فهيمنة القرآن الكريم على الكتب المقدسة ، ترجع الى أنه المصدر الوحيد للوحى الذى سلم من التحريف ، أو التغيير والتبديل ، فكان بذلك المرجع لكل ما فى أيدى رجال الدين من اليهود ، والنصارى • يصحح ما حرف ، ويفصل فيما بينهم من خلاف ، اذ هو يمثل رسالة الله الصادقة ، فمنزلته من اكتب السابقة هى منزلة الرقيب ، وهى منزلة المرجع الذى يصحح ما فى أيدى الناس من كتب سماوية قيل انها من عند الله ، فهو الفيصل فى جميع المسائل التى إختلف أهل الكتاب فيها • ولذلك يقول الله تعالى : **« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين • يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم »**(٨) •

وخلاصة القول : ان الكتب السماوية السابقة على القرآن الكريم ، قد أصابها التحريف والتبديل ، وأن رجال الدين اختلفوا فيما بينهم حول النصوص المقدسة ، وما تدل عليه من أحكام وتشريعات ، ولم يكن هناك مخرج من هذا النزاع الا أن يرسل الله رسولا ، ويوحى اليه وحيا ، يبين للناس ما حرف ، ويوضح لهم الحكم الصحيح فيما اختلفوا فيه ، فكان القرآن الكريم ، وأصبح بذلك مهيمنا على ما سبقه من كتب مقدسة أى مصححا لها ومبينا للناس ما حرف منها وما بدل،فصارت له اليد العليا على ما عداه من كتب مقدسة ، يهيمن عليها بالتصحيح والبيان ، ويهدى البشر الى ما فيه صلاحهم ، وفلاحهم • يقول الله تعالى : **« ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون • وانه لهدى ورحمة للمؤمنين • ان ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم »**(٩) •

* * *

---

(٨) المائدة : ١٥ ، ١٦ (٩) النمل : ٧٦ — ٧٨ •

٢٢ — موقف الاسلام من العقائد السابقة وأهلها

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ، أن يبعث الى كل أمة رسولا ، يبلغهم وحيه ، فيأمرهم بطاعته ، ويحذرهم من معصيته ، فكانت رسالة كل رسول خاصة الى بنى قومه ، يقول الله تعالى :

« والى عاد أخاهم هودا »(١) ..

« والى ثمود أخاهم صالحا »(٢) ..

« والى مدين أخاهم شعيبا »(٣) ..

ويقول : **« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله »(٤) ..**

ويقول : **« واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم »(٥) ..**

حتى جاء خاتم الرسل محمد ﷺ ، فكانت رسالته عامة للناس جميعا ، يقول الله تعالى : **« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا »(٦) ..**

ويقول رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى » وذكر من هذه الخمسة : أن كل رسول كان يبعث الى قومه خاصة ، وبعث هو الى الناس كافة .

ولهذا وجه الله النداء فى القرآن الكريم ، الى الناس جميعا فقال : **« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »(٧) ..**

وقال : **« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم ، وان تكفروا فان لله ما فى السموات والأرض ، وكان الله عليما حكيما »(٨) ..**

---

(١) الأعراف : ٦٥ — (٢) الأعراف : ٧٣
(٣) الأعراف : ٨٥ — (٤) ابراهيم : ٥
(٥) الصف : ٦ — (٦) سبأ : ٢٨
(٧) الأعراف : ١٥٨ — (٨) النساء : ١٧٠

فكل انسان بلغته الدعوة ، وجب عليه الايمان ، والا أصبح من الكـافرين •

وأول ما يجب الايمان به ، وحدانية الله سبحانه وتعالى ، فهى أساس كل الرسالات ، اذ دعا كل نبى قومه الى الايمان بالله الواحد لا شريك له • يقول الله تعالى : **« أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون »**(٩) ••

ويقول : **« وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون »**(١٠) ••

فالتوحيد هو أصل الايمان ، فمن أشرك مع الله الها آخر ، أو أنكر وجود الله فهو مشرك أو ملحد •

والركن الثانى من أركان الاسلام : الاعتراف بأن محمدا ﷺ رسول الله ، ويتضمن هذا الاعتراف ، الايمان بأن القرآن الكريم وحى الله ، يجب تنفيذ ما جاء به من أوامر ، والابتعاد عما نهى عنه ، وقد عرف هذين الركنين بالشهادتين ، اذ ذكر فى الحديث المروى عن رسول الله ﷺ : أن أركان الاسلام خمسة ، وبدأ بهذين الركنين ، معبرا عنهما ، بقوله : « شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله » ، فهما وان ذكرا فى الحديث على أنهما ركن واحد ، الا أنه ينبغى أن نعتبرهما هنا ركنين ؛ لأن من الناس من يعترف بأن الله واحد ، وينكر رسالة محمد ﷺ ، فيقف الاســلام منه موقفا يختلف عن موقفه مع أولئك الذين ينكرون الاثنين ، فــلا يعترفون بالله ـ أو يشركون مع الله آلهة أخــرى ـ ولا يؤمنون بأن محمدا رسول الله •

فالناس بالنسبة للاسلام ثلاثة أصناف :

صنف ينكرون وجود الله ، وهؤلاء يطلق عليهم : « الملحدون » ••

والصنف الثانى : يشرك مع الله الها آخر أو آلهة أخرى ويعرفون : بـ « المشركين » •

---

(٩) البقرة : ١٣٣ (١٠) التوبة : ٣١

وصنف ثالث : يؤمن بوحدانية الله ، لأنهم يعترفون برسالة أحد الأنبياء السابقين على بعثة محمد ﷺ ، ولكنهم لا يعترفون برسالة محمد ﷺ ، وهؤلاء يطلق عليهم : « أهل الكتاب » والمراد ، من يعترف بالتوراة أو الانجيل ، أى اليهود والنصارى .

ولما كانت رسالة محمد ﷺ عامة لجميع البشر ، فقد بلغ دعوته لجميع الناس ، على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم ؛ فطلب من الملحد أن يكف عن الحاده ، ويعترف بوجود الله ، وأمر المشرك أن يخلص العبادة لله وحده ، فأن أبيا فلا مكان لهما فى المجتمع الاسلامى ، فعليهم أن يرحلوا عنه ، لأن الاسلام لا يقبل أن يكون فى دولته من ينكر وجود الله ، ويدعو الناس الى هذا الاتجاه ، كما نصح أهل الكتاب بالدخول فى الاسلام ؛ لأنه وحى الله ، الذى نزل على أنبيائه جميعا ، يقول الله تعالى : **« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب »**(١١) .

ويقول : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »**(١٢) ..

وكانت دعوته للجميع سلمية ، فلم يكره أحدا على تغيير عقيدته ، ولم يجبر أحدا بطريق مباشر ، أو غير مباشر ، على الدخول فى الاسلام ، بل أسمعهم وحى الله ، وتركهم يقررون بمحض اختيارهم ما ترتضيه نفوسهم ، حتى تتحق العدالة فى الثواب والعقاب ، فالرضا بالاسلام دينا ، ينبغى أن ينبع من ذات الشخص نفسه ، بعد أن تظهر أمامه حقائق الأشياء واضحة .

يقول الله تعالى **« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »**(١٣) ..

ويقول : **« من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها »**(١٤) ..

---

(١١) النساء : ١٦٣
(١٢) الشورى : ١٣
(١٣) البقرة : ٢٥٦
(١٤) الاسراء : ١٥

وعليه فالاسلام لا يجبر أحدا على تغيير دينه ، ولا يستعمل السلاح لحمل النـــاس على اعتناق مبادئه ، بل يتركهم أحرارا فى عقائدهم . يقول تعالى : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شـيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** »(١٥) ..

غير أنه لا يسمح لأحد ، بأن يصد الناس عن ذكر الله ، أو يمنع أحدا من سماع كلمة الله ، فان منع أحد دعاة الاسلام من تأدية مهمتهم فى مجال التبليغ ، فعلى المسلمين أن يتصدوا له بكل وسيلة ممكنة ، ليؤمنوا وصول كلمة الله ، الى الناس جميعا ، فان اقتضى الأمر القتال ، فلا يكون لحمل أحد على الدخول فى الاسلام ، وانما لمنع من يتصدى للدعاة ، ويمنعهم من تبليغ كلمة الله للناس .

وان جرد أحد أصحاب هذه العقائد السلاح ضد المسلمين ، فعليهم مقاومته ورد عدوانه عنهم ، ولم يخرج الاسلام فى اباحة القتال فى مثل هـــذه الأحوال عن الطبيعة الانســـانية ، ذلك أن الانســـان يمتاز عن الحيوان بالقدرة على التفكير ، ومن خصائص هذا التفكير ، ميل الانسان الى الحرية فى التعبير عن آرائه ، وفى اعتناق ما يراه موافقا لطبيعته ، فاذا منع من هذا بقوة السلاح ، فان من الطبيعى أن يدافع عن رأيه ، بالوسائل التى يقابله بها من يريد كبت حريته ، فاذا أراد أحـــد أن يفتن آخر عن عقيدته ، مستعملا الدعاية والمنطق دون اللجوء على حمله على ترك عقيـــدته بالقوة ، لم يكن للمؤمن أن يدافع عن عقيـــدته ، الا بالحجة ، والمنطق .

أما اذا أجبر بقوة السلاح ، لم يكن له من سبيل ، الا حمل السلاح أيضا ، للدفاع عن عقيدته ، لأنهـــا أثمن شىء عند من يفهمون معنـــى الانسانية ، فهى أثمن من المـــال والجاه ، بل أغلى من الحياة نفسها ، وقد أدرك المسلمون الأولون هذا المعنى ، فدفعوا حياتهم ثمنا للدفاع عن عقيدتهم ، وتلك سنة الله فى خلقه .

---

(١٥) آل عمران : ٦٤

يقول الله تعالى : « **ولولا دفــع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** »(١٦) ..

ويقول : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا** »(١٧) ..

فان سلك أصحاب العقائد الأخرى أسلوبا حضاريا تجاه الاسلام ، فتركوا دعاته يعرضون الدعوة ، واقتصرت معارضتهم للاسلام على المجادلة بالحسنى ، تركهم الاســلام يعتنقون ما يشاءون ، ولكنــه لا يسمح لملحد أو مشرك أن يقيم فى المجتمع الاسلامي ، ويظهر الحاده علانية ، فان كف عن هذا ، واكتفى بالجدل العلمى ، ترك وشأنه ولكنــه لا يتولى مناصب لها أثر فى مجال التوجيه الثقافى فى المجتمع ، وعليه أن يلتزم — هو وغيره ممن لا يعتنقون الاسلام دينا — أن يلتزموا بكل ما تقرره الدولة الاسلامية من أحكام ، وما تتخذه من اجراءات ، وأهل الكتاب أحرار فيما يعتقدون ، وفيما يمارسون من طقوس وعبادات ، ولا يتدخل الاسلام فى تصرفاتهم ، الا بمقدار ما يحفظ طابع المجتمع الاسلامى ، ويصون حرية الفكر ، وابداء الرأى .

وفيما عدا ذلك ، يعيشون مع المســلمين ، لهم مالهم ، وعليهم ما عليهم ، لا يضارون فى معيشة ، ولا يضيق عليهم فى رزق ، ما داموا ملتزمين ، بما آمنت به الأغلبية من قوانين وتشريعات لا تمس عقيدتهم ، ومنفذين ما تراه الأغلبية حفاظا للمجتمع من التفكك والانهيار ، وصونا للأمة من الضعف والانحلال .

وخلاصة القول : ان الاسلام لجميع الناس ، ولا يكره أحدا على اعتناقه ، ومن يأبى الدخول فيه صنفان : مشرك ، أو ملحد ، وهؤلاء لا يسمح لهم باظهار الحادهم ، أو شركهم علانية ، فان أبوا الا ظهور شركهم والدعوة له ، فعليهم أن يرحلوا من المجتمع الاسلامى ، أما الصنف الثانى : فهم أهل الكتاب وهؤلاء مسموح لهم أن يعيشوا فى المجتمع الاسلامى ، ويمارسوا عبادتهم بحرية ، بشرط أن يلتزموا بما تقرره الأغلبية من قوانين وتشريعات ..

---

(١٦) البقرة : ٢٥١ (١٧) الحج : ٤٠

٢٣ — حكم الاسلام فى من لم يؤمن به

أرسل الله محمدا ﷺ الى الناس كافة ، ليبلغهم رسالة ربه ، ومن مقتضيات التبليغ ، الزامهم بالايمان بالله ربا ، وبه رسولا ، والاعتراف بأن القرآن هو وحى الله ، الذى أنزل عليه ، والتصديق بمـا فيه من أخبار عن الأنبياء السابقين ، وعن أحوال الآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب • كما أنهم ملزمون بعد هذا ، بتنفيذ ما جاء فيه من أوامر ، واجتناب ما تضمنه من نواهى ، فان فعلوا ذلك كله ، فهم مسلمون تجرى عليهم أحكام الاسلام •

ومن تبلغه الدعوة ، ويأبى الدخول فى الاسلام أصناف :

صنف يؤمن برسالة سماوية ، كاليهود والنصارى ، فهؤلاء يتركون وشأنهم امتثالا لقول الله تعالى : **« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »**[1] •

فان أقاموا فى مجتمع اسلامى ، فهم مطالبون بالحفاظ على أمن المجتمع وسلامته ، فلا يتآمرون مع عدو من أعداء الاسلام ضد الدولة ، ولا يباشرون أعمالا تؤذى شعور المسلمين ، أو تكون سببا فى اشـاعة الفاحشة والفساد بين أفراد الأمة ، وعليهم أن يؤدوا الجزية ، بمعنى أن يدفع القادر منهم قدرا من المـال فى مقابل الدفاع عنه ضد المعتدين •

فليست الجزية احتقارا لأهل الكتاب ، كما أنها ليست اغتصابا من المسلمين لأموال اليهود والنصارى ، وانما هى تنفيذ لعقد اجتماعى ، وبمقتضى هذا العقد ، يقوم المسلمون بالدفاع عن الوطن فى سـاحات القتال ، ويدفع أهل الكتاب جزءا من مالهم ، ولا يكلف بدفع هذا المـال ، الا القادر منهم ماديا • فأيهما المغبون فى هذا العقد — ان كان هناك مجال للحديث عن غبن وقع على أحدهما — أهم المسلمون الذين يضحون بحياتهم فى ساحات القتال ، أم أهل الكتاب الذين يدفعون جزءا بسيطا من أموالهم ، فى سبيل أن يشعروا بالطمأنينة والأمن ، وهم قابعون

---

(١) آل عمران : ٦٤

فى ديارهم ، يتمتعون بالراحة على وسـائدهم اللينة ، ويستطعمون غذاءهم على موائدهم العامرة بأصناف الطعام والشراب ، بينما المسلمون المجاهدون فى ساحات القتال ، ينامون على الثرى ، ويكتوون بشظف العيش ، تحت أشـعة الشمس المحرقة ، وزمهرير الليـل القارس ، ولا يشعرون براحة فى نومهم ، ولا بلذة فى تناول طعامهم ، كتلك التى يتمتع بها أولئك الذين يدفعون الجزية ، فى مقابل اعفائهم من هـذا العمل الشـاق ؟ .

ولا تقف سماحة الاسلام مع أهل الكتاب عند هـذا الحد ، فقـد أعطاهم الحرية الكاملة فى ممارسة عباداتهم ، وتأدية طقوسهم الدينية . فلا يضيق عليهم فى معابدهم ، ولا يؤذون فى مشاعرهم الدينية ، كما أنه منحهم حقوق المواطن كاملة فى تحصيل أرزاقهم ، وممارسة هواياتهم الاجتماعية ، ما دام ذلك فى اطار الشرعية . وفى حدود قانون الدولة ، وسوى بينهم وبين المسلمين فى مجال العمل ، فيحدثنا التاريخ : أن من أهل الكتاب من بلغ منصب الوزارة فى الدولة الاسلامية ، وهذه ظاهرة لم توجد فى أى دولة فى العصور القديمة — حيث كان الفكر الدينى هو المسيطر على مقاليد الحكم — ، اذ لم يحدث أن وصل أحد من الأقليات الدينية ، الى منصب مرموق ، فضلا عن منصب الوزارة ، فوجود هذه الظاهرة فى المجتمع الاسـلامى دليل على سماحة الاسلام مع أهل الكتاب ، الذين أبوا أن يعترفوا برسالة الاسلام .

فان لم يلتزم أهل الكتاب المقيمون فى المجتمع الاسلامى بتنفيذ ما يقتضيه حق الجوار ، ومما تتطلبه أنظمة الدولة : بأن ارتكبوا أعمالا ، من شأنها جرح الشعور الدينى للمسلمين ، أو الحاق الضرر بنظام الدولة العام ، فعلى الحاكم محاسبة المذنب منهم بالطرق القانونية ، وتوقيع العقوبة عليه طبقا للأحكام المقررة فى الدستور ، والمنصوص عليها فى التشريع الاسلامى ، ولا يعاقب جميع أفراد الطائفة ، بذنب ارتكبه فرد واحد منهم ، كما أنه لا يجوز للمسلمين أن يردوا الاعتـداء على مقدساتهم بأسلوب يؤدى الى اشعال الفتنة ، لأن هذا عمل يسىء الى

لاسلام ، ويعطى الفرصة لأعدائه للنيل منه وتصويره بصورة تنفر المجتمع الدولى منهم ، بل عليهم أن يسلكوا فى وقف الاعتداء على حرماتهم الدينية أسلوبا ينفى عنهم شبهة اضطهاد أهل الأديان الأخرى ، ويحافظ على الصورة المشرقة ، التى انفرد بها الاسلام على امتداد التاريخ فى معاملة من يعيشون فى مجتمعه من أصحاب العقائد التى لا تتفق معه فى بعض المبادىء والاتجاهات .

فقد عامل الاسلام أهل الكتاب ، على أنهم جزء من الرعية الاسلامية ، مع احتفاظهم بعقيدتهم ، وعليه .. فلم تعقد الدولة الاسلامية معاهدات مع الدول الأخرى ، الا وكان المسلمون ، وأهل الكتاب ممثلين فيها معا ، على اعتبار أنهم مواطنون فى أمة واحدة ؛ فقد روى أبو يوسف فى كتابه « الخراج » : « لما صالح عبد الله بن أبى السرح ملك النوبة تقرر فى الصلح أنه أمان وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ، مما جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين ، وأهل الذمة ، وأخذ النوبيون على أنفسهم العهد بحماية من نزل بلدهم ، أو طرقه من مسلم أو معاهد » ، أى أن أهل الكتاب داخلون فى هذه المعاهدة ، مثل المسلمين سواء بسواء .

فان كان أهل الكتاب لا يعيشون فى الدولة الاسلامية ، فان الاسلام يجيز للمسلمين أن يتعاملوا معهم ، على أساس حسن الجوار الدولى ، ان لم يظهروا العداوة للاسلام ، كأن يستهزئوا به وبتعاليمه ، أو يمنعوا الدعاة من تأدية واجبهم ، أو يدبروا المؤمرات ، للاغارة على الدولة الاسلامية ، فان فعلوا ذلك ، فلا يجوز لمسلم أن يتخذهم أصدقاء ، امتثالا لقول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين** » (٢) ..

فان أعلنوا الحرب ضد الاسلام ، فليس للمسلمين من سبيل ، سوى الرد عليهم بمثل ما مالوا اليه ، وهو الحرب والقتال ، أينما وجدوا ،

---

(٢) المائدة : ٥٧

وبأى كيفية متاحة لهم ، يقول الله تعالى : « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين • انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون** »(٣) ••

وقوله : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** »(٤) ••

ولا ينبغى أن تؤثر حالة الحرب بين الدولة الاسلامية ، وبين دولة مسيحية على معاملة المسلمين لأهل الكتاب الذين يعيشون فى المجتمع الاسلامى ، فلا يؤخذون بذنب ارتكبه أبناء ملتهم فى الدولة المعادية ، ما داموا محافظين على الدولة التى يعيشون فيها ، ويستظلون بظلها ، فان خان أحدهم العهد ، واتصل بالدولة المعادية فعلى الحاكم أن يطبق عليه حكم من رفع السلاح فى وجه المسلمين ، دون أن يتجاوز عقابه الى من التزم بالعهد منهم ، فلا يؤخذ أبناء ملته بجرمه ، ولا ينقض عهدهم مع المسلمين ، ما دامت الخيانة التى ارتكبها المذنب منهم عملا فرديا ، أى لم تأخذ صورة التآمر الجماعى • .

أما الصنف الثانى : ممن بلغته الدعوة الاسلامية ، ولم يؤمن بها ، فهم المشركون مع الله الها آخر ، وهؤلاء لا مكان لهم فى المجتمع الاسلامى ، فلا يسمح لهم باقامة شعائر ولا بتشييد معابد ، بل ولا يقيمون بين المسلمين فى الدولة الاسلامية ، ما داموا مصرين على اظهار عقيدتهم بأى صورة كانت ، يقول الله تعالى : « **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين • كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون** »(٥) •

---

(٣) الممتحنة : ٨ ، ٩ — (٤) البقرة : ١٩٤

(٥) التوبة : ٧ ، ٨

وبقوله : « **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين • ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم** »(٦) ..

والصنف الثالث : هم الملحدون ، الذين ينكرون وجود الله ، فهم اعداؤه ، ولا مكان لمن يظهر العداوة لله فى المجتمع الاسلامى ، ولا فى قلوب المؤمنين ، يقول الله تعالى « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعـدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وأياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالمودة وأنا اعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل • ان يثقفوكم يكونوا لكم أعـداء ويبسـطوا اليـكم أيديهم وألسـنتهم بالسـوء وودوا لو تكفرون** »(٧) •

فلا يجوز لمسلم أن يتخذ عدوا لله وليا له • بل يجب عليه قتالهم ، امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى ، حيث يقول : « **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** »(٨) ..

ويجب على المسلمين تنفيذ هذه الاحكام فى الأصناف الثلاثة ، ان أظهروا عقيدتهم سافرة ، أما ان أخفوها ، فليس لأحد القدرة على حساب شخص على ما فى قلبه ، فذلك متروك حسابه لله تعالى ، فهو يحاسبهم فى الآخرة على انكارهم رسالة الله وعلى ما اقترفوا من سيئات تتعلق بالعقيدة ، فان شاء عفا عنهم ، وان شاء أذاقهم عذاب الجحيم ، غير أنه أخبرنا فى كتابه ، أنه ان وسعت مغفرته المذنبين كلهم ، فلن يغفر للمشركين أبدا ، يقول تعالى : « **ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـاء** »(٩) ..

ولا شك أن ذنب الملحد فوق ذنب المشرك ، وليس دونه ، فهو داخل مع أولئك الذين لن يغفر الله لهم أبدا •

* * *

(٦) التوبة : ١٤ ، ١٥
(٧) الممتحنة : ١ ، ٢
(٨) التوبة : ٢٩
(٩) النساء : ٤٨ ، ١١٦

o p e n - k a n d o r a . c o m

٢٤ ـ خواطر داعية حول ((الهجرة))

لن أحدثك اليوم عن قصة الهجرة ، وما حدث فيها من معجزات ، دلت على أن محمدا رسول الله حقا ، فهذه أمور معروفة ، ويستطيع كل مسلم أن يطلع عليها فى كتب السيرة النبوية ، بل سأحدثك عن معان ، تدور فى الذهن عند ذكر هجرة الرسول ﷺ من مكة الى المدينة ، معان لا يستطيع ادراكها الا من أوتى بصيرة فى فهم الرسالات ، وعرف أنها لا توجد فى أى دين من الأديان على الاطلاق الا الاسلام ، ولم يعرفها أى نظام ظهر فى المجتمعات البشرية حتى الآن ، لأن تلك المعانى تسمو فوق طاقة البشر ، ويعجز عن التفكير فيها عقل الانسان ، ولا ينتبه اليها أى فرد مهما كانت قدرته فى الذكاء والابداع ، فهى من توجيه العليم الخبير بالنفس الانسانية ومطالبها ، وبالطبيعة البشرية ومتطلباتها ، وبما تحتاجه المجتمعات البشرية من جهاد لتحرر النفس ، وروابط تجمع الشمل ، ومبدأ عام يلتف حوله الناس .

لقد كانت الهجرة حدا فاصلا بين عهدين متميزين فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، بين عهد ملىء بالخوف والرعب والايذاء النفسى والبدنى ، بالنسبة لصاحب الرسالة محمد ﷺ وصحابته الأول الأقلاء رضوان الله عليهم ، وعهد استقرت فيه النفس واطمأنت ، وكثر عدد المسلمين ، وقويت شوكتهم .

كانت هجرة الرسول وصحابته من مكة الى المدينة ، خاتمة لمرحلة كفاح ، من أجل الحق وهو كلمة التوحيد ، اعتمد فيها المسلمون فى دعوتهم الى الله على الصبر ، فتحملوا الأذى .. وصبروا على المشاق فى توصيل كلمة الحق الى هؤلاء الذين استكبروا ، فلما لم تظهر عليهم أى بادرة تدل على تحولهم الى الاسلام ، أمر الله نبيه ﷺ وأصحابه بالهجرة الى المدينة ليتحرروا من الايذاء المادى والنفسى الذى كانت قريش تصبه عليهم صبا ، وليبدأوا مرحلة جديدة فى الكفاح لنشر دين الله ، مرحلة غلبت فيها قوة العدد والعدة عن ذى قبل ، بجانب قوة الايمان المستمر التى لم تفارق الكفاح من أجل هذا الحق حتى

انتصر ودخل النـــاس فى دين الله أفواجا ، وبفضل هــذا الكفــاح والايمان القوى ، وصف المؤمنون المهاجرون : بأنهم أصحاب درجة عظمى عند الله ، يقول الله سبحانه وتعالى : **« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى ســبيل الله بأموالهم وأنفســهم أعظم درجة عنــد الله ، وأولئك هم الفائزون »**(١) •

فالهجرة عنوان للكفاح فى ســبيل الله ، وراية لتحرير الانســان من ظلم أئمة الكفر والفسق فى مكة ، وســبيل يحتذى ، ان كان لابد منه ، لتطوير حركة الدفاع عن الاســلام •

وستظل الهجرة تمثل مرحلة يهتدى بها كل من استضعف ، فعليه أن يهاجر الى أرض يستطيع أن يمارس فيها شعائره الدينية ، ويتمكن منها من ضرب الطغاة الظالمين •

أما المعنى الثانى فى الهجرة : فهو وحــدة الأمة •

لقد كانت الهجرة حدثا ، وضح للمسلمين بصورة لا تقبل الشك ، أنهم جميعا اخوة فى الله ، لا تباغض ، ولا تناحر بينهم ، ولكن تآلف ومحبة ، يقول الله تعالى : **« وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين • وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعــا ما ألفت بيــن قلوبهم ولكن اللــه ألف بينهم ، انــه عزيز حكيم »**(٢) •

فقد أثمرت الهجرة ــ فيما أثمرت ــ وحدة القلوب بين المهاجرين ، الذين بايمانهم وبرسالتهم من مكة الى المدينة ، وبين الأنصار ، وهم المؤمنون من ســكان المدينة الذين آووا ونصروا أولئك المكيين المهاجرين ، عندما وصلوا اليهم •

أثمرت تماسكهم فى ترابطهم ، أثمرت لقاءهم فى طريق واحد ، وعزمهم على الوصــول الى الهدف الواحد ، أثمرت رفع ما كان بينهم من روح العصبية القبلية ، وازالة ما كان بينهم من خصومة أوجدها

---

(١) التوبة : ٢٠

(٢) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣

الصراع ، الذى كان يسود حياة القبائل العربية الى قيام الدعوة الاسلامية •

لقد كان التآخى بين المهاجرين والأنصار مثلا فريدا من نوعه فى العالم ، يدل على أن علاقة العقيدة الاسلامية أقوى من كل رباط بين البشر ، وكان — ولا يزال — يذكر المسلمين بأن الوضع الطبيعى للعلاقة بينهم ، أن يكونوا اخوة متحابين ، يساعد بعضهم بعضا ، لأن هذا هو طريق القوة ، وسبيل العزة ، ووسيلة التماسك القوى ، للوقوف أمام أعداء الاسلام •

أما المعنى الثالث للهجرة : فيؤخذ مما فعله عمر رضى الله عنه حين أراد أن يجعل للتاريخ العربى نقطة بداية ، اذ هداه الله الى أن يجعل الهجرة بدايته ، وكان من الممكن أن يجعل ميلاد محمد ﷺ بدءا له ، كما هو الحال فى جميع الأديان التي ربطت تاريخها بمولد مؤسسيها ، وهذا الالهام من عمر رضى الله عنه يذكرنا بأن الاسلام لا يرتبط بشخص مخلوق ، حتى ولو كان النبى ﷺ نفسه ، بل يرتبط بالمبادىء •• والهجرة من أسمى المبادىء فى التاريخ الاسلامى لأنها فصلت بين عهدين ، وكانت بداية لانتصار الاسلام الذى لم يتوقف حتى بلغ أقصى الأرض •

* * *

٢٥ ــ الهجــرة

تموج المجتمعات الانسانية منذ القدم بتيارات مختلفة ، واتجاهات متعارضة ، وأفكار متنافرة ، غير أن من الممكن تصنيف ميول الانسان ، الذى هو مصدر هذه الاتجاهات ، ومنبع تلك الأفكار الى عنصرين رئيسيين وهما : الخير والشر ، فالنفس الانسانية تتأرجح بين هذين العنصرين ، اذ أن عمل الانسان وسلوكه فى المجتمع ، اما أن يتسم بسمات تجعله يميل ناحية الخير ، واما أن تسيطر عليه عوامل تجذبه الى طريق الشرور والآثام •

والناس مختلفون فى تحديد أوصاف الخير والشر ، ولذا فهم فى صراع مستمر حول ما يجب أن يلتزمه الفرد ، ليكون صالحا لنفسه ولمجتمعه ، وفى نزاع دائم حول تحديد معالم الشر ، الذى ينبغى أن يبتعد عنه الانسان ، فهناك مبادىء عديدة •• يختلف تقييمها من شخص لآخر ، فبينما يرى واحد أنها خيرة وصالحة للمجتمع ، يذهب آخر الى إنها تسبب أضرارا للحياة الاجتماعية ، ويتضح هذا الاختلاف فى تاريخ الأنبياء مع قومهم ، اذ بينما دعوهم الى ما فيه صلاحهم فى الدنيا وفلاحهم فى الآخرة ؛ كان رد قومهم عليهم هو الانكار والمعارضة التى بلغت أحيانا حد الايذاء البدنى ، لأنهم كانوا يعتقدون أن ما هم عليه هو الصحيح الذى يجب على المجتمع المحافظة عليه ، وعدم التفريط فيه • أما ما جاءهم به أنبياؤهم ، فهو الأمر الذى لا خير من ورائه ، اذ هو بدعة ، لا يعرفون عنها الا الجانب الذى سوف يجلب عليهم الخراب والدمار •

ولما كان الأنبياء مطالبون بتبليغ رسالتهم ، مهما قوبلوا بالمعارضة والانكار ، استمروا فى دعوة قومهم للايمان بما جاءوا به من عند الله ، فآمن بهم قلة ضئيلة من الناس ، كانوا هدفا لايذاء المنكرين والمعارضين • ومن أشد صور المعارضة التى عرفت فى تاريخ الأنبياء معارضة أهل مكة للاسلام ، فقد تفننوا فى ايقاع الأذى بمن آمن بالاسلام فضربوهم ،

وعذبوهم بأقصى صورة يمكن أن يتخيلها الانسان فى مقاومة الدعوات ، مما دفع رسـول الله ﷺ أن يأمر المعذبين بالهجرة الى الحبشة ، لأنهم كانوا قلة مغلوبة على أمرها ، تتلقى كل يوم من كفـار قريش ضربات لا هوادة فيها ولا رحمة ، وصفعات من السخرية ، لا أدب فيها ولا عفة ، فلم يكن أمام النبى ﷺ ازاء هـذا الوضع غير المتكافىء ، الا أن يأذن بالهجرة لينطلق المؤمنون فى آفاق الأرض ، علهم يجدون من يسمع نداء الله ، فيرق قلبه ، ويستجيب لدعوة الله ، فيكون فى ذلك انتشـار الدعوة الاسـلامية .

فالهجرة هى الوسيلة الوحيدة للقلة المستضعفة ، لأنه وان كان ايمانها بدعوتها يعطيها من القوة ما تستطيع به أن تتحمل صنوف الأذى ، ومن اليقين ما يجعلها تصمد أمام ألوان البطش والارهاب ، ومن الرجاء فى رضـاء الله ومغفرته ما يدفعها الى التضحية بأرواحها وأموالها ، الا أن هؤلاء المؤمنين ، الذين يتعرضون للايذاء صباح مساء بشر ، لهم طاقة احتمال محدودة ، ومن هنا كان الحل الوحيد أن يهاجروا الى حيث يجدون الأمن على حياتهم ، والحرية فى ممارسة ما تلزمهم به عقيدتهم .

ولمـا اقتضت ارادة الله أن تسير الدعوة الاسلامية فى طريق عادى يخضع للأسباب التى رسمها الله لتحويل المجتمعات الانسانية ، لم يحل — وهو القادر على كل شىء — بين المسـلمين المستضعفين فى مكة ، وبين أذى الجبابرة من قريش ، بل ترك الصراع يسير وفقا لسنة الحياة ، حتى يكون السابقون الأولون مثلا يحتذيه الخلف فى الدفاع عن عقيدتهم . وحين اشتد أذى قريش للمسـلمين ، أذن الله للمسـلمين بالهجرة الى المدينة ، فكانوا يخرجون خفية ، وبعيدا عن أعين الرقباء ، حتى لا يؤذون ، أو يمنعوا من مواصلة الهجرة ، الى حيث أمرهم رسـول الله ﷺ .

ومما يدل على أن الله سبحانه وتعالى ترك عملية الهجرة تسير طبقا لسنن الحيـاة دون أن يتدخل بمعجزة تمنع وصـول الأذى اليهم ، أن من كان من المسلمين ذا بطش وقوة ، خرج جهارا نهارا أمام أعين

كفار قريش ، بل تحداهم أن يتعقبوه ، ويتمثل ذلك فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد روى أنه خرج شاهرا سلاحه ، وهو يقول : « من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجه ، فليتبعنى وراء هذا الوادى » .. فلم يستطع أحد أن يخرج وراءه ليمنعه من الهجرة .

كذلك أخذت الترتيبات ، التى اتخذها رسـول الله ﷺ فى هجرته ، طابع الحرص الشديد ، والتخطيط المحكم ، وذلك ليعلم المسلمين أن الأمور لا تؤخذ اعتباطا ، وانما لابد من الدراسة الواعية ، والتخطيط السليم ، والتنفيذ المتقن ، فقد خطط لهجرته تخطيطا دقيقا ، اذ عندما علم أن قريشا تريد قتله قبل أن يخرج مهاجرا الى يثرب ، أمر عليا بن أبى طالب أن ينام فى فراشه ، ليوهم القوم أنه لازال فى بيته ، فلا يتعقبونه ، وبذلك يكون عنده فسحة من الوقت لتنفيذ الخطة التالية ، وهو اختفاؤه فى الغار .

وكان اختياره للغار دليلا أيضا على دقة الخطة بصورة تجعل المرء يقف مبهورا أمام هـذا العقل الذى اختار جهة غـير جهة المدينة امعانا فى تضليل من يتعقبونه ، ولا يملك الا أن يسلم بأنها كانت بوحى من الله لأن رسـول الله ﷺ كان أميا ، لم يتدرب على مثل هـذا التمويه ، الذى لا يعرفه الا أناس عرفوا من قراءة التاريخ صـورا من الحيل أكسبتهم قدرة على رسم مثل هـذه الخطة المحكمة .

واستكمالا للخطة ، لم ينس أن يكلف عبد الله بن أبى بكر أن يتسمع الأخبار فى منتديات قريش ، وارسال « أسماء » بها اليه ، فلم يذهب هو اليه بهـا خوفا من أن ترصده قريش ، فتتعرف عن طريق تعقبه مكان الرسول ﷺ ، كما كلف عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر أن يمر بالأغنام ، ليخفى أثر « أسماء » ، كذلك كان يمده وصاحبه باللبن اللازم لغذائهما .

ويمكث رسول الله ﷺ وصاحبه فى الغار ثلاثة أيام حتى تهدأ قريش ، وتيأس من العثور عليهما ، فيأتى اليهما عبد الله بن الأريقط بالراحلتين — طبقا للخطة المرسومة — ويخرجان متوجهين الى المدينة . ومع احكام الخطة ، ودقة التنفيذ كانا يطلبان العون من الله سـبحانه

وتعالى ، فكان الله يرعاهما ، ويحافظ عليهما فنصرهما على من طلبوهما ، وصــدق الله اذ يقول : « **الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليــه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمــة الذين كفروا السفلى ، وكلمــة الله هى العليــا ، والله عزيز حكيم** »(١) ..

وعندما وصل رسول الله ﷺ ، الى المدينة ، قابلته مشكلة من أعقد المشــاكل الاقتصادية ، ذلك أنه وجد نفسه أمام مجتمع مؤلف من أهل يثرب المستقرين فى ديارهم ، ومعهم أموالهم ، ومن مهاجرين تركوا ديارهم وأموالهم فى مكة ، وخرجوا منهــا صفر اليدين ، ليس معهم ما يساعدهم على كسب ما يقتاتون به ، فماذا يفعل ؟ .

أيصادر أموال الأغنياء من أهل يثرب ويوزعها على المحتاجين ؟

لم يفعل ذلك ..

لأن المفروض أن ما يفعله سيكون تشريعا يجب على المسلمين اتباعه فى مثل هــذه الظروف ، ولما كان الله عالما بما ينفع المجتمعات ، فقد ألهمه ألا يفعل ذلك ، لأنه ليس هو الحل الأمثل . وقد أثبتت حوادث التاريخ فشل هــذا الاتجاه فى حل المشاكل الاقتصادية فى المجتمعات الانســانية .

أيطلب من الفقراء المعدمين الصبر على هــذه الظروف ، حتى يأذن الله بالفرج ؟ .

لا .. لم يفعل ذلك ..

ولو فعــله لكان أمرا بالخضــوع والاســتكانة أمام الأزمات الاقتصادية ، فضلا عن أنه رضاء وتقرير للظروف الاجتماعية ، التى يكون فيها أغنياء يتمتعون بأموالهم وممتلكاتهم ، ويعيشون فى بحبوحة من العيش ، بينما هنــاك اخوان لهم فى المجتمع يتضورون جوعا ، لأنهم لا يجدون ما يقتاتون به ، وليس هنــاك ما يلزم الأغنياء بتقديم المعونة لهؤلاء المحتاجين .

---

(١) التوبة : ٤٠

ولهذا أرسى قاعدة فريدة من نوعها فى التاريخ البشرى ، ألا وهى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، أى أن كل أنصارى كان يتخذ أخا له من المهاجرين ، ومن متطلبات الأخوة المساعدة لاجتياز مرحلة الأزمة . ولم يحدد الرسول ﷺ نوع المساعدة ، بأن يشاطره ، بماله ، أو بأكل المهاجر من دخل الأنصارى ، والا لكانت نوعا من التأميم أيضا ، بل تركها لضمير المسلم وظروف الأخوين ، ولذا وجدنا صورا من الحوار بين الرسول ﷺ وبين الأنصار ، وكذلك بين المهاجرين والأنصار ، وضحت لنا الهدف الأول لهذه الأخوة ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال للأنصار : « ان اخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا اليكم » .. فقالوا : أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله ﷺ « أو غير ذلك » ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمار » أى تسندون اليهم الأعمال فى المزارع ، على أن يأخذوا نصف ثمارها .

وحدث أن أنصاريا عرض على أخيه المهاجر أن يقاسمه ماله ، فيأخذ نصفه ليعيش منه ، فرفض المهاجر هذا العرض ، وقال : بارك الله لك فى مالك ، ولا أطلب منك سوى أن تعرفنى الطريق الى السوق ، لأباشر عملا أقتات منه .

فلم تكن المؤاخاة ، سوى وسيلة لمد يد العون والمساعدة الى هؤلاء الذين أتوا الى المدينة بدون مال ، وتختلف الظروف حسب كل شخص ، فتارة تكون باعطائه فرصة العمل ، وتارة بمساعدته فى التعرف على طرق كسب العيش فى المدينة ، وأخرى باعطائه جزءا من المال يستطيع به بدء حياته ، وبهذا يعيش المجتمع أسرة واحدة يتعاونون فيما بينهم على السراء والضراء ، فيحس الأخ بما يمانيه أخوه ، فيعمل قدر المستطاع على تخفيف العبء على كاهل الضعفاء والمساكين ، وان اقتضى الأمر التنازل عن بعض ما يملك لهم ، وهذا هو ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم ، كمثل

الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ••

وجملة القول : ان الدروس التى يجب أن يعيها المسلمون من الهجرة كثيرة ، تناولنا ثلاثة منها فى هذا الحديث وهى :

أولا : لا يكلف الاسلام الا بما يتحمله الانسان ، فعندما طلب من المسلم الصبر على الأذى فى سبيل تبليغ الدعوة ، لم يكن القصد الاستمرار على هذه الحالة حتى الموت ؛ بل أمره بالهجرة عندما لم يكن هناك أى أمل فى دفع هذا الأذى ، وتلك قضية يجب أن يعيها المسلمون فلا يتعرضون لتيارات المقاومة الى درجة الانتحار الجماعى ، بل عليهم أن يبحثوا عن طريق أخرى لتوصيلهم الى الهدف بأقل تضحية ممكنة ، ولا يلجأون الى التضحية الا عندما تسد جميع الطرق السلبية المؤدية الى الهدف •

ثانيا : يجب على المسلمين ألا يتركوا الأمور تسير سيرا عشوائيا ، بل عليهم أن يخططوا تخطيطا سليما ، ويلتزموا الدقة فى التنفيذ ، كما علمهم رسول الله ﷺ ، فى تخطيطه للهجرة ، وعليه •• فما شاع عن المسلمين ، من أنهم ارتجاليون فى أعمالهم ، ومتواكلون فى سلوكهم ، فليس من الاسلام فى شىء ، بدليل أن نبيهم ﷺ وهو المؤيد بالوحى ، لم يفعل ذلك حين هاجر من مكة الى المدينة ، وما ذاك الا ليضرب لهم المثل فى كيفية التصرف فى مثل هذه المواقف •

ثالثا : فرض الاسلام على الأغنياء أن يمدوا يد المساعدة لاخوانهم الفقراء ، فلو فعلوا ذلك لقضوا على أكبر مشكلة تواجه المجتمع ، ألا وهى الفقر ، فاذا قضى على الفقر اختفى حقد الفقراء على الأغنياء ، وتلاشت نزعة تعالى الأغنياء على الفقراء ، فيعيش الكل اخوة متحابين متعاونين ، وتلك هى غاية ما تتمناه المجتمعات البشرية •

❊ ❊ ❊

٢٦ ـ الموت ليس نهاية للانســان

شغلت مسألة ما يحدث للانســان بعــد الموت حيزا كبيرا فى الفكر الانسانى على جميع مستوياته ، فتغلغلت فى حياته الشخصية ، وفى معتقداته الباطنية ، لدرجة أنه اهتم بها اهتماما فاق كل ما عداها فى جميع مجالات الحياة ، فانشغل بها الفلاسفة على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم ، وتناولتها الأديان ــ على اختلاف تصوراتها للحيــاة ــ بالشرح والبيان ، واحتلت المقام الأول فى قائمة الأســئلة ، التى يبحث الانســان عن اجاباتها ، سواء أكان فى تأملاته الذاتية ، أو فى مساجلاته الأدبيــة وأحاديثه الاجتماعية • بل أصــبح نجاح كل مذهب فلسفى ، أو اتجاه فكرى متوقفا على موقفه من هــذه المسألة ، ولهذا حاولت كل المذاهب الفلسفية توضيح ما أسمته بقضية استمرارية الحياة بعــد المــوت ، فتعددت اتجاهاتها ، واختلت مواقفها من هــذه القضية • وتتلخص هــذه الاجتهادات الفكرية فى ثلاث صور :

فالصورة الأولى :

هى ما أطلق عليها الاستمرار البيولوجى ، ومعناه أننا نبقى بعد موتنا فى أشخاص أبنائنا ، وأبناء أحفادنا ، خلال الأجيال المختلفة •

ولمــا كان هــذا الرأى يقتصر على استخدام المفاهيم البيولوجية ، فانه يؤكد أن كل كائن عضو حى ، ليس الا مستودعا مؤقتا لبذور الحياة ، وما حياة الفرد الا وديعة تسلم عند وفاته لأبنائه وبناته •

والصورة الثانية :

هى ما سميت بالبقاء الاجتماعى ، بمعنى أن استمرار وجودنا بعد الموت ، ينحصر فى ذكريات أسرتنا وأصدقائنا ، اذ أن الأفراد الذين يقدمون للمجتمع أكبر الخدمات ، هم الذين يقدر لهم بقاء اجتماعى أطول ، فبقاؤنا يتوقف على مقدار جدارتنا ، أى على كوننا قد أسهمنا فى المجتمع بنصيب يستحق أن تخلد ذكراه بعد موتنا • وفى كل حالة من الحالات يظل كل ما فعلناه من خير ورحمة باقيا بعد مماتنا ، وسوف يعمل من انتفعوا من ارادتنا الخيرة على حفظ ذكرانا عطرة ، والاشادة ببركتنا •

وأطلق على **الصورة الثالثة** من صور استمرارية الحياة : الخلود الأخلاقى ، ويرى أصحاب هـذا التصور أن هناك صراعا بين الخير والشر فى عالم الانســان ، فالفرد الذى يتنازل عن فرديته وهويته الشخصية ، فيكافح الشر ، فان جهوده فى هـذا المجال سوف تسفر عن ازالة قطعة من الشر ، واحلال أخرى من الخير ، فكأنها تظل نصبا تذكاريا يخلد ذكراه ، ويشيد بمجهوده فى هـذا المجال ، وهكذا يرى أنه على الرغم من ضياع شخصيته — لم يعش حياته عبثا ، فحياته قد اكتسبت بفضل هذا النصيب الذى أسهمت به مكانة وغاية تنأى به عن العقم ، وترتفع به الى مستوى انسانى بالمعنى الصحيح ، له مغزاه ، ودلالته الباقية ..

غير أن هـذه التصورات لم تعط اجابة شافية للانسان الذى لا يفتأ يسأل نفســه ، ويستفسر ممن حوله ، عما اذا كان هناك بقاء بعد الموت أم لا ؟ ! اذ يرى أن الاستمرار البيولوجى ، أو البقاء الاجتماعى ، أو الخلود الأخلاقى ، وان كان حقيقة لا تنكر ، الا أنها أشــكال هزيلة من صور البقاء بعد الموت ، لا تستحق التفكير فيها ، فما لم يكن وجودنا بعد الموت وجودا ، تظل فيه الفردية والشخصية باقية ، وينطوى على استمرار فى الغاية والمسعى ، فان هـذا الوجود لن يكون بقاء بأى معنى معقول .

ولم يتناول بقاء الشخصية بعد الموت ، ببيان يرضى الناس — على اختلاف درجاتهم الثقافية ، ومستوياتهم الاجتماعية — الا الأديان ، فهى التى بينت للناس أن الموت ليس نهاية لهم ، وانما هو انتقال من مرحلة الى مرحلة أخرى ، أو من عالم دنيوى الى عالم آخر ، يختلف فى قوانينه وأحكامه عن هـذا العالم الذى يعيشون فيه ، ولسوف يستمرون فى الحيــاة بعد الموت بوصفهم أفرادا متميزين ، وستكون لهم آمال وأفعال كريمة ، مشابهة الى حد بعيد لمـا كان لهم وهم أحياء فى هـذه الدنيا .

ذلك أن ما يشاهد على مسرح الحياة الدنيا من سلوك الناس المتباين والمتضاد وأسلوبهم فى تطبيق مبدأ الجزاء والعقاب ، يحمل الانسان

obeikandi.com

على الاعتقاد اعتقادا جازما ، بأنه لابد من حياة أخرى ، يكون ميزان العدل فيها غير خاضع لهوى ، ولا متأثر باتجاهات طبقية أو عرقية ، ولا واقع تحت اغراء الجاه والسلطان ، ولا ميال الى زخرف الحياة الدنيا ومتعها ، من تحصيل المال ، والاستمتاع بالشهوات والملذات ، لأنه لو خلت حياته من هذا الأمل ، لأصيب باحباط قاتل ، ويأس مدمر ، وقنوط يشل حركته عن الاسهام فى دفع عجلة التطور والتقدم ، وما ذاك الا لأنه يرى أمام عينيه صباحا ومساء عذابا يصب فوق رؤوس الأخيار ، ونعيما يرفرف فى أرجائه الأشرار والقتلة ، ومصاصو الدماء ، ويشاهد كل يوم عقابا ينزل بالأبرياء ، ونياشين وأوسمة تعلق على صدور من ارتكبوا أبشع الجرائم وأفظعها فى حق الأفراد والجماعات ، ويدرك بأحساسيسه المتعددة أن كثيرا من الناس يحصلون على الأموال الطائلة بطرق غير مشروعة ، دون أن يبذلوا أدنى جهد ، بينما يكتوى آخرون بنار المعاناة فى سبيل الحصول على ما يسدون به رمقهم .

فلو لم توجد حياة أخرى ترد فيها الحقوق الى أصحابها ، ويعاقب فيها كل من ظلم أو جار على حق أخيه ، ويثاب فيها كل من قدم خيرا لمحتاج ، لخيمت الكآبة على هذه الحياة ، ولأصبحت أشبه بغابة : يفترس فيها القوى الضعيف ، دون أن يردعه الخوف من سلطان العدل الالهى .

فالايمان بأن كل انسان سيحاسب بعد الموت على ما قدم فى هذه الحياة الدنيا ، يساعد على استقرار الحياة فى المجتمع ، ويضفى ثوب الاطمئنان على نفوس الأفراد ، عندما يدركون أن من عمل خيرا فجزاؤه خير ، ومن اقترف اثما فسيعاقبه الله ، ان عاجلا أو آجلا فيما بعد الموت ، يقول الله تعالى « **بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون** »[1] ..

---

(١) البقرة : ٨١ ، ٨٢ .

ويقول : « **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون** » (٢) ..

وليس لمن ينكر الحياة بعد الموت دليل على رأيه ، وانما انكاره مبنى على ظن ، والظن لا يمكن أن يستند عليه رأى ، ولا يجوز الالتفات الى اتجـاه يتخذ الظن دليلا له ، خاصة اذا ترتب عليه ضرر بالفرد والحياة الاجتماعيـة .

وقد بينا أن الايمان بالحياة بعد الموت ضرورى ولازم للفرد والمجتمع، فمن ينكره فانه ينكر أمرا حيويا لاستمرار الحياة . ولهذا لا يقام لهذا المنكر وزن ، ومما يزيده ضعفا ، أنه لا يعتمد الا على الظن ، الذى لا يصـلح أساسا للاتجاهات الفكرية التى تمثل جانبا هاما فى حيـاة الناس ، وصدق الله اذ يقول : « **وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون** » (٣) ..

ومن يستدل على انكاره الحياة بعد الموت ، باستحالة عودة الأجسام الى حالتها الأولى ، بعد أن تتحلل فى التراب ، فقد نسى قدرة من أنشأها أولا من العدم ، يقول الله تعالى فيمن جاء الى النبى ﷺ — وفى يده بعض العظام — يسأله عما اذا كان من الممكن أن يحيى الله هذه العظام بعد ما وصلت الى هذه الحالة : « **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة، ، وهو بكل خلق عليم** » (٤) ..

أما من يؤمن بتناسخ الأرواح ، بمعنى أن من يموت تحل روحه فى مولود جديد : فلا يستطيع بناء على هذا الاعتقاد أن يفسر لنا ظاهرة ازدياد عدد السكان فى العالم ، لأنه اذا كانت هذه النظرية صحيحة ، فلا يمكن أن يزيد عدد السكان ، اذ أن كل انسان يموت ، تحل روحه فى انسان يولد ، فمن أين تأتى الزيادة المستمرة ؟

---

(٢) الجاثية : ٢١ . (٣) الجاثية : ٢٤ .
(٤) يس : ٧٨ ، ٧٩ .

فهذا دليل واضح على بطلان هذه العقيدة ، وتأكيد على أن الله هو الذى يزيد فى خلقه ما يشاء ، وقد أخبرنا على لسان نبيه ﷺ أن من مات سيبعث بعد الموت ليثاب من عمل صالحا ، ويعاقب من ارتكب اثما ، يقـــول الله تعالى : ((**يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شىء شهيد**)) (٥) ..

* * *

(٥) المجادلة : ٦ .

obeikandl.com

٢٧ — العقائد الدينية فى أحوال الميت فى قبره

اتفقت معظم الأديان على مبدأ الجزاء بعد الموت ، فمن يعمل صالحا فى هذه الحياة ، سيجازى بعد موته ، ومن يعمل شرا ، سيعاقب بحسب ما ارتكب من سيئات وأخطاء ، غير أنها اختلفت فى صورة الثواب والعقاب ومكانهما •

فالأديان التى ليس من مبادئها الاعتراف بحياة أخرى غير هذه الحياة الدنيوية تصور الثواب والعقاب تصويرا مرئيا ، أى أنه يقع فى هذه الحياة الدنيوية ، فالبرهمانية والبوذية وغيرهما من الأديان التى تقول بتناسخ الأرواح ، أى بانتقال روح الميت الى مولود جديد ، ترى أن الصالح ستحل روحه فى طفل تكون حياته سهلة ، ووضعه فى سلم الحياة الاجتماعية أرقى من الوضع التى كانت فيه •

أما من ارتكب الخطايا فستحل روحه فى جسم أقل درجة من الجسم الذى ارتكب هذه الخطايا ، وتصنيف الدرجة يأتى بحسب نوع الخطايا التى ارتكبها وكميتها ودرجتها ، ولا شك أن هذه العقيدة بهذا المفهوم فى فلسفة العقاب ، تهمل الجسد ، فلا يقع العقاب عليه ، وانما يقع على الروح فقط ، وهذا يتنافى مع العدل ، اذ أن الجسد قد استمتع أيضا مع الروح فى الحياة ، فلابد أن يناله جزء من الثواب والعقاب ، ومن المعروف أن العقيدة التى تخالف هذا المبدأ البديهى تكون قد تجنبت طريق الصواب •

كذلك من الأديان — كاليهودية — من أغفل ذكر ما بعد الموت ، فالدارس للكتب الاسرائيلية يرى أنها لم تذكر شيئا عن البعث واليوم الآخر ، بل ان الكتاب المقدس نفسه يعد الحياة الدنيا وحدها عالم الانسان ، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك فى بعث وجنة ونار •• وهذا تحريف لرسالة الله ، الذى أخبرنا بأن هناك بعثا وجنة ونارا وحياة بعد الموت •

فليس فى هذه الأديان — التى أهملت ذكر ما بعد الموت من حياة أخروية — ذكر لأحوال الميت فى قبره ، اذ أنها لا تعترف بها ضمنا ،

غير أن من الطبيعى وطبقا لمفهوم العدل أن يكون هناك جزاء لما قدمه الانسان فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يكون الجزاء كامل الصورة ، الا اذا وقع على كلا العنصرين اللذين يتكون منهما الانسان وهما : الروح والجسد ، وهذا هو ما أخبرنا به القرآن الكريم فقال الله تعالى : **« ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير • وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »**[1] ••

فالبعث حق ، لأن الله أخبرنا به ، وهو تحقيق لعدل الله ، لأن الحياة مليئة بالأشرار الذين يسلبون حق الأخيار ، ويفلتون من عقاب الدنيا ، فليس من العدل أن يتركوا بدون عقاب •

وطبقا لمفهوم العقاب فى الاسلام ، فالميت فى قبره بمثابة المحجوز للفصل فى أمره ، وبالتعبير القانونى : هو محجوز على ذمة التحقيق ، ومن الطبيعى أن تختلف أحوال المحجوزين ، فمن عمل صالحا يفسح له فى قبره ، ومن عمل سوءاً يضيق عليه فى قبره ، فقد روى عن أم بشر أنها قالت : دخل على رسول الله ﷺ وهو يقول : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » فقلت : يا رسول الله •• أو للقبر عذاب ؟ قال : « انهم يعذبون فى قبورهم عذابا تسمعه البهائم » •

أما اذا كان صالحا فيوسع له فى قبره ، ويبقى فى جو من الراحة ، حتى يبعث يوم القيامة ، فقد روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ان المؤمن فى قبره لفى روضة خضراء ، فيرحب له قبره سبعين ذراعا ، وينور له كالقمر ليلة البدر » •• وروى : « القبر أول منزلة من منازل الآخرة ، فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وان لم ينج فما بعده أشـــد » •

فكل من مات ، وهو مستحق للثواب أو العقاب ، ناله نصيب منه قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع ، أو أحرق ، أو أغرق فى البحر ، وصل الى بدنه من الثواب والعقاب ، ما يصل الى الميت الذى دفن فى قبر تحقيقا لمبدأ العدل الالهى •

* * *

(١) الحج : ٦ ، ٧

٢٨ — الصلة بين الأحياء والأموات

لا يشك أحد من الناس — سواء أكان ملحدا أو متدينا — فى وقوع الموت ، لأنه ظاهرة عامة يراها الناس جميعا كل يوم ، غير أن ما بعد الموت هو المسألة التى اختلفوا فيها ، فالملحدون يرون أنه نهاية الانسان ، فلا حياة بعد الموت ، ويعبر القرآن الكريم عن رأيهم مبينا أنه لا يقوم على أساس علمى ، بقوله تعالى : **((وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون))**(١) ..

فأحوال الميت بعد انتقاله من هذه الحياة المشاهدة مجهولة للأحياء ، فليس لديهم أى دليل يؤدى بهم الى معرفة ما يحدث له بعد انتقاله من هذه الحياة الدنيوية ، الا ما أخبرنا به الوحى ، لأن الله استأثر بعلم هذا الجانب ، فلم يعط للانسان القدرة على كشفه ، وانما أخبره بشىء عنه عن طريق الوحى الذى أنزله على رسله ، ومن بين ما جاء فى هذا المجال ، امكانية وجود صلة بين الأموات والأحياء .

من الملاحظ أنه لا توجد صلة عضوية بين الميت والحى ، وما يوجد من ظواهر الصلات الروحية التى تأتى للأحياء على هيئة رؤى يرونها وهم نائمون ، فليس هناك ما يبين لنا حقيقة هذه الظاهرة . وعليه فلا يمكن انكارها انكارا باتا ، كما أنه ليس لدينا أدلة واضحة على ثبوتها ، فقد تكون حقيقة ، وقد تكون أعراضا نفسية تظهر فى صورة أحلام ، ولهذا ينبغى على المسلم أن يؤمن بوجودها كما هى ، أى لا يحاول تفسيرها على أنها نوع من الصلة بين الحى والميت ، لأن هناك من الآيات ما ينفى الصلة بينهما .

يقول الله تعالى : **((حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا انها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون))**(٢) ..

---

(١) الجاثية : ٢٤ (٢) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠

فقد قال المفسرون : ان البرزخ هو الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ، وما ورد عن النبى ﷺ أنه قال : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .. فلا يفيد وجود صلة عضوية ، أو روحية بين الميت والحى ، وانما هو بيان لاستمرارية ثواب ما غرس الميت فى حياته من أعمال صالحة ، فمن أوقف شيئا كأرض أو عقار ، أو غير ذلك مما يدر ربحا مستمرا على أى وجه من وجوه الخير ، كالفقراء والمساكين ، أو على جانب من الجوانب الاجتماعية فى الدولة ، فعمله مستمر ، وثوابه متصل ، ما دام هذا المنبع يفيض على أهل الحاجة ، ولا يتوقف الثواب بعد موته ، بل تكتب له الحسنات حتى بعد مماته ..

كذلك من ترك انتجا علميا ينتفع به الناس ، يستمر حصوله على الثواب مدة دوام هذا العلم بين الناس وانتفاعهم به ، كما أنه يستفيد أيضا من عمل ابنه الصالح ، لأن حسن تربيته لابنه يعتبر غرسا صالحا له ، فطالما بقى الابن على قيد الحياة ودعا له يتقبل الله منه هذا الدعاء ، فالصلة التى يتحدث عنها الحديث ليست صلة عضوية ولا روحية بين الميت والحى ، وانما هى بيان أن عمله الصالح يعود عليه بالنفع حتى بعد مماته .

وما يشاع بين الناس من أن الميت جاءه فى المنام ، وأمره بفعل شيء ما ، أو تركه ، أو أنه غاضب عليه ، لأنه تصرف على هذا النحو أو ذاك ، فليس هناك دليل من القرآن أو السنة على صحة هذه الصلة بين الأحياء والأموات ، وأبسط ما يقال فيها :

انها ترجمة لما يدور فى العقل الباطن ، لمن رأى هذا الحلم ، فلا يعول عليه كدليل يعتمد عليه فى ثبوت مثل هذه الصلة .

* * *

٢٩ — البعث

تحتل كلمة العدل مكانة سامية لدى الناس جميعا ، على اختلاف مستوياتهم الحضارية ، وتباين مكانتهم الاجتماعية ، وتباعد درجاتهم الثقافية ، اذ عندما تذكر كلمة العدل فى أى نزاع ، أو خصومة ، نجد اجماعا من المتخاصمين على الوضوخ لما يحقق العدل والعدالة بينهم ، فلا يستطيع الاعتراض على مبدأ تطبيق كل ما من شأنه أن يحقق العدل بينهم •

غير أن أسلوب وطريقة الفصل فى المنازعات لا تحقق العدل فى كل الأحوال ، كذلك قد تطمس معالم العدل بين الناس ، فلا يجد المظلوم من يأخذ له حقه من الظالم ، ولا توجد الوسائل والاجراءات التى تحد من غلواء من يستغل الناس ويسلبهم حقوقهم ، ولهذا كان من حكمة الله أن أعطى الناس مهلة فى هذه الحياة الدنيا ، ليفعلوا ما يشاءون بمحض ارادتهم ، ثم يبعثهم بعد الموت ، ليحاسب كل على ما قدمت يداه •

يقول الله تعالى : **« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ، فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا »**(١) ••

فالايمان بالبعث بعد الموت ضرورة اقتضتها حكمة الله لتحقيق العدل بين الناس ، فمن قدم خيرا ، فجزاؤه خير ، ومن فعل غير ذلك ، عوقب على ما قدمه فى الدنيا ، فهو ركن من أركان الايمان ، من كفر به ، فليس مسلما • يقول الله تعالى : **« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** (وهو يوم البعث) **والملائكة والكتاب والنبيين »**(٢) ••

فمن لم يؤمن بالبعث ، فقد ضل سواء السبيل ، يقول الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله**

---

(١) فاطر : ٤٥ (٢) البقرة : ١٧٧

والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً »(٣) ..

وسوف يلقى الله سبحانه وتعالى ، بمن يكفر بالبعث فى النار ، لما روى أن رجلا من كفار قريش أتى النبى ﷺ بعظام ، وقال له : يا محمد .. أترى الله يحيى هذا بعد ما رم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « نعم .. ويبعثك ويدخلك النار »

ثم نزل قوله تعالى : **« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم »**(٤) ..

فثبوت قدرة الله على الخلق ابتداء ، دليل على امكانية اعادة الخلق ، لأن الاعادة أقرب الى التحقيق من الخلق ابتداء ، ويضاف الى هذا الدليل ، أن الانسان يحب العدل ويكره الظلم ..

ومما لا شك فيه أن الخالق أكمل من المخلوق ، فعدل الله أكمل من عدل الانسان ، فان كان عدل الانسان يأبى التسوية بين الظالم والمظلوم ، والقاتل والمقتول ، والمطيع والعاصى ..

فمما لا شك فيه أن العدل الالهى من باب أولى يأبى التسوية بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، يقول الله تعالى : **« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »**(٥) ..

* * *

(٣) النساء : ١٣٦ (٤) يس : ٧٨ ، ٧٩
(٥) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨

٣٠ ــ الحســاب

من المبادىء الأساسية ، التى تقوم عليها الأديان ، عقيدة الحساب ، أى أن كل انسان سيحاسب على ما قدم فى حياته ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشرا ، غير أنها اختلفت فى كيفية المجازاة والعقاب ، فبعضها يرى أن ذلك ، سيكون فى الدنيا ، فى صورة حياة أخرى للروح بعد فناء الجسد ، يتحدد على أساسها عقابها أو ثوابها ، والبعض الآخر جعل الجزاء فى الدنيا فى صورة قحط وهلاك لمن عصى الله ، ورغد فى العيش وعزة فى ظل دولة قوية لمن أطاعه واتبع تعاليمه •

أما الاسلام ، فقد بين للناس أن هناك يوما للحساب ، سيكون بعد أن يحشر الناس من قبورهم ، يقول الله تعالى : **« ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون • قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون • أن كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينــا محضرون • فاليوم لا تظلم نفس شــيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون »**[١] ••

فالايمان باليوم الآخر شرط أساسى فى صحة الاسلام ، اذ الايمان : أن نؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وهو يوم القيامة ، حيث تعود الأرواح الى الأجساد ، فيقوم الناس من قبورهم حفاة عراة ، وتنصب الموازين لتوزن بها أعمال العباد ، يقول الله تعالى : **« فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون • ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون »**[٢] ••

وفى يوم الحساب تنشر الدواوين ، وهى الصحف التى كتبت فيها أعمال العباد ، أى الكتب التى كتبتها الملائكة ، وأحصوا فيهــا ما فعله الانســان من ســائر أعماله القولية والفعلية ، يقول الله تعــالى : **« واذا الصحف نشرت »**[٣] ••

---

(١) يس : ٥١ ــ ٥٤

(٢) المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣

(٣) التكوير : ١٠

أى اذا الصحف التى فيها أعمال العباد ، نشرت للحساب ، فيأخذ كل كتابه أو صحيفته ، يقول الله تعالى : **« فأما من أوتى كتابه بيمينه • فسوف يحاسب حسابا يسيرا • وينقلب الى أهله مسرورا • وأما من أوتى كتابه وراء ظهره • فسوف يدعوا ثبورا • ويصلى سعيرا »**(٤) ••

وروى أحمد والترمذى عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يعرض الناس ثلاث عرضات ، فعرضتا جدال ومعاذير ، وعرضة تطاير الصحف ، فمن أوتى كتابه بيمينه ، وحوسب حسابا يسيرا دخل الجنة ، ومن أوتى كتابه بشماله دخل النار » ••

وعليه فيجب الايمان بالبعث والنشر من القبور ، كما يجب الايمان بيوم الحساب وهو اليوم الذى تعرض فيه أعمال العباد على الله ، فيتقرر مصير كل بناء على ما قدم فى الدنيا ، فان كان قد فعل خيرا ، أخذ كتابه بيمينه ، ودخل الجنة ، وان كان قد فعل شرا أخذ كتابه بشماله ودخل النار •

ومن أنكر شيئا من هذا فهو كافر ، لأنه أنكر أمرا ثبت بنص القرآن الكريم ، فقد جاءت آيات كثيرة تثبت وجود اليوم الآخر والحساب فيه ، فمنها قوله تعالى : **« وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ،** (والمراد بطائره : ما طر عنه من عمله من خير وشر فهو يلزم به ، ويجازى عليه) **ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا • اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »**(٥) ••

وقد أقسم الله بهذا اليوم ، فقال تعالى : **« لا أقسم بيوم القيامة »**(٦) ••

وأخبرنا بما يجرى فيه فقال : **« ينبؤا الانسان يومئذ بما قدم وأخر »**(٧) ••

---

(٤) الانشقاق : ٧ — ١٢
(٥) الاسراء : ١٣ ، ١٤
(٦) القيامة : ١
(٧) القيامة : ١٣

وقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة (وهى يوم الحساب) شىء عظيم • يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »(٨) ••

* * *

(٨) الحج : ١ ، ٢

obeikandl.com

٣١ ـ الشـفاعة

اتفقت المذاهب الاسلامية على أن الله لن يظلم أحداً عند حسابه يوم القيامة ، لأن الظلم منقصة ، والله منزه عن النقائص ، كما تواترت الأدلة والبراهين بصورة ترفع الخلاف فى هذه المسألة ، منها قوله تعالى : **« ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا وليتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحــدا »**(١) ..

وقوله : **« ان الله لا يظلم مثقال ذرة ، وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجــرا عظيما »**(٢) ..

وورد فى أحاديث متعددة وعيد الله للظالمين ، وانكاره للظلم ، واخبار النبى ﷺ المسلمين بأن الله لا يظلم أحدا من خلقه .

ولكنه قد يتجاوز عمن أساء فى حقه ، فيغفر لبعض المؤمنين . يقول الله تعالى : **« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـــاء »**(٣) ..

فغفران الذنوب ، تفضل من الله على العبد ، والتفضل من شيم الكرام ، وعلى هــذ الأساس نشأت بين العلماء قضية عقدية ألا وهى أن وعيد الله يتخلف . بمعنى أن الله قــد يتنازل عن وعيده بتعذيب العاصى ، فيغفر له ذنوبه ، وهذا هو رأى أهل الســنة ، أما المعتزلة والخوارج فينكرون ذلك ، مستندين الى أن العاصى قد ارتكب اثما ، فيجب أن يأخذ عقابه ، والا أفلت مذنب من العقاب على ما ارتكب .

وتفرع من هذه القضية مسألة الشفاعة يوم القيامة ، فجميع المذاهب متفقة على أنه لا شفاعة لكافر ، لكنهم اختلفوا فى شأن عصاة المؤمنين ،

---

(١) الكهف : ٤٩
(٢) النساء : ٤٠
(٣) النساء : ٤٨ ، ١١٦

ob.elkandi.com

فذهب المعتزلة والخوارج الى انكارها ، مستدلين على ذلك بقوله تعالى :
« ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »(٤) ..

وقوله : **« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون »**(٥) ..

أما أهل السنة ، فقد أثبتوا الشفاعة لأهل الاخلاص ، وقالوا انها مقيدة بأمرين : اذن الله للشافع بأن يشفع ، ورضاه عن المشفوع له ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : **«من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه»**(٦) .

وقوله : **« ولا يشفعون الا لمن ارتضى »**(٧) ..

وردوا على الآيات التى استدل بها المعتزلة على رأيهم فى نفى الشفاعة ، بأنها وردت فى حق الكفار ، ومعلوم أن الجميع متفقون على أنه لا توجد شفاعة للكافر .

وعليه .. فأهل السنة يثبتون الشفاعة لمن يأذن الله لهم من المؤمنين ، كما يثبتون الشفاعة للنبى ﷺ ، فذكروا أن له شفاعات عدة منها : شفاعته فى أهل الموقف حتى يقضى بينهم ، وهى المعروفة بشفاعته العظمى ، لتعجيل الحساب ، واراحة الناس من هول الموقف ، وهذه خاصة به دون سائر الأنبياء .

وشفاعته فى عصاة الموحدين ، الذين يدخلون النار بذنوبهم ، يشفع فيهم لاخراجهم منها ، وشفاعته لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعة درجتهم ، وشفاعته فى قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم فيدخلون الجنة ، وشفاعته فى بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عنهم العذاب ، وهذه خاصة بأبى طالب .

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن الشفاعة ما هى الا صورة من صور الوساطة التى تمارس فى المجتمعات الانسانية ، اذ بواسطة من له علاقة بمن بيدهم الأمر ترتكب مخالفات دون محاسبة ، ويتجاوز

(٤) غافر : ١٨
(٥) البقرة : ٤٨
(٦) البقرة : ٢٥٥
(٧) الأنبياء : ٢٨

عن معاقبة المذنب ارضاء لصاحب الأمر فتطمس معالم العدالة — وحاشا لله أن يقبل أمرا يمس تطبيق العدالة بين الناس — ولذا فهم ينكرون الشفاعة ، ويؤولون الآيات التى وردت فى شأنها ، كما فعل ذلك المعتزلة فى صـــدر الاســـلام •

غير أن حقيقة الشفاعة تخالف هذا المفهوم الذى توصلوا اليه ، ألا وهو أن الله عندما يريد العفو عن مسىء ، لبادرة قام بها فى حياته ، أو لتصرف حميد فى ناحية ما ، ويريد فى الوقت نفسه تكريم عبد فانه يحرك هذا العبد ليشفع فيمن أراد الله أن يغفر له ، فالحقيقة أن الله سيغفر لهذا العبد سواء شفع له الشافع أم لم يُشفع ، غاية الأمر أن الله أراد أن يكرم الشافع فوجهه الشفاعة فى أمر قد تقرر قبوله ، وبهذا المعنى تختلف الشفاعة عن ظاهرة الوساطة الموجودة فى عالمنا الانسانى ، بدليل أن الشفاعة لا تقبل فيمن كفر بالله ، كما لا تقبل فيمن سلب حقوق الآخرين حتى يؤدى ما عليـــه باعطائهم من حسناته ، فان لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئاتهم ووضعت فى حسابه ، وليس هناك شفاعة لمن ارتكب الكبائر •

كل هذا يبين أنها تكريم للشافع ، فيمن أراد الله العفو عنه ، وليست وسيلة لضياع الحقوق ، أو براءة من أذنب فى حق الآخرين ••

* * *

٣٢ ــ حقائق المصطلحات التى وردت عن الآخرة

وهب الله الانسان العقل ، وألهمه التفكير فيما حوله من مظاهر الطبيعة ، بل انه استنكر على من ألغى عقله هذا الاتجاه ، فقال تعالى : **« أو لم يتفكروا فى أنفسهم »**(١) ..

وقال : **« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء »**(٢) ..

وقد استخدم الانسان عقله ، فأجرى بحوثا عديدة بغية الكشف عن أسرار الطبيعة ، غير أنه ــ على الرغم من التقدم الهائل فى مجال البحث العلمى ــ لم يستطع أن يتوصل الا الى القليل من أسرار الطبيعة ، ذلك أن عقل الانسان محدود بقدرة معينة ، لا يستطيع أن يتجاوزها .

فاذا كان هذا حاله فى مظاهر الطبيعة المحيطة به ، فمن باب أولى هو أشد عجزا فى مجال البحث عما خفى عليه ، أعنى فيما وراء الطبيعة ، اذ ما يتعلق بها لا دخل للعقل فيه ، لأنه يعجز عن التوصل اليه وانما مصدره السماع فقط ، أى ما يخبر به الوحى عن طريق نبى يوحى اليه ، ولهذا سمى هذا النوع فى العقيدة الاسلامية بالسمعيات . ومما ورد فى السمعيات الاخبار بالميزان والصراط والحوض وغيرها .

أما الميزان .. فقد جاء ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : **« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة »**(٣) ..

وقوله : **« فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية »**(٤) ..

غير أن العلماء اختلفوا فى تحديد هيئته وصورته ، فقال أهل السنة : انه بعامود وكفتين ، والموزون فيه صحف الأعمال ، أو مثالات يخلقها الله تعالى ، ويزنها على قدر أجور الأعمال ، ومما يتعلق بها من ثوابها

---

(١) الروم : ٨
(٢) الأعراف : ١٨٥
(٣) الأنبياء : ٤٧
(٤) القارعة : ٦ ــ ٩

وعقابها ، أما المعتزلة فقد أنكروا هذا التصور للميزان ، وأولوا الوزن على اعتبار الحسنات ، وقالوا : « وزن كل شيء بما يليق به » .

أما الصراط .. فقد وردت آيات عدة فى القرآن الكريم ، تتحدث عن الصراط المستقيم ، وهداية الله الانسان اليه ، كما وردت آية تتحدث عن صراط الجحيم ، ويفهم من هذه الآيات أنه هو الطريق الصحيح فى الهداية والرشاد ، فمن اهتدى فقد سلك الصراط المستقيم الذى رسمه الله لعباده فى قوله تعالى : **« وأن هــذا صراطى مستقيما فاتبعوه »**(٥) ..

ومن ضل فقد تنكب الطريق المستقيم ، ومال الى طريق جهنم . كما قال الله تعالى عنه : **« احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم »**(٦) ..

غير أن هناك أحاديث تخبر عن صراط الآخرة ، ويفهم منها أنه جسم ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرون ، كما ورد فيهــا أنه أدق من الشعرة ، وتكون سرعة الناس عليه قدر أعمالهم . وقد أنكر ذلك المعتزلة ، وأولوا الصراط بطريق الجنــة ، وبالأدلة الواضــحة ، وبالعبادات كالصلاة والزكاة وغيرهما من الأعمال التى تقرب العبد من الله سبحانه وتعالى .

أما الحوض .. فلم يرد له ذكر فى القرآن الكريم اطلاقا ، وانما ورد فى الأحاديث ، منها ما رواه مسلم عن أنس أنه قال : بينما رسول الله بين أظهرنا اذ غفى اغفاءة ، ثم رفع رأسه متبسما ، فقلنا : ما أضــحكك يا رسول الله ؟ فقال : « أنزلت على آنفا سورة .. فقرأ : **« أنا أعطيناك الكوثر »**(٧) ، ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : انه نهر وعدنيه ربى ، عليه خير كثير ، وهو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يارب .. انه من أمتى . فيقال : أما تدرى ما أحدثوا بعدك » ؟ ..

---

(٥) الأنعام : ١٥٣
(٦) الصافات : ٢٢ ، ٢٣
(٧) الكوثر : ١

ويرى بعض المحدثين أن الايمان بما جاء فى القرآن الكريم عن أحوال يوم القيامة واجب ، ويدخل فى ذلك الايمان بوجود الميزان وغيره •

أما حقيقة المصطلحات التى وردت عن أحوال اليوم الآخر ، فيجب التوقف فيها عند النص ، بمعنى أننا نؤمن بوجود الميزان يوم القيامة ، أما هيئتـه وكيفية الوزن ، فذلك خارج عـن قدرة عقولنا ، فينبغى ألا نخوض فيه ، ونتبع هذا فى كل ما ذكره الوحى أو الحديث الصحيح عن أحوال الآخرة كالصراط والحوض وغيرهما •

* * *

obeikandl.com

٣٣ — الجنـة والنـار

أمر الله أنبياءه ورسله بأن يبلغوا عباده بأنه أعد للمتقين جنات النعيم ، وللعصاة نار الجحيم ، وذلك تحقيقا للعدالة فى مجال الثواب والعقاب ، فقال تعالى : **« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين »**(١)

ويقول مخبرا عما أعده للعصاة : **« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم ، وبئس المهاد »**(٢) ..

ويقول : **« ان جهنم كانت مرصادا • للطاغين مآبا • لابثين فيها أحقابا • لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا • الا حميما وغساقا • جزاء وفاقا • انهم كانوا لا يرجون حسابا • وكذبوا بآياتنا كذابا • وكل شىء أحصيناه كتابا • فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا »**(٣) ..

وقد وردت فى القرآن الكريم عدة أسماء للجنة منها : دار السلام • يقول تعالى : **« لهم دار السلام عند ربهم »**(٤) ..

ويقول : **« والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم »**(٥) ..

وأطلق عليها : دار الخلد • لأن نعيمها باق لا يفنى ، يقول تعالى : **« ان هذا لرزقنا ما له من نفاد »**(٦) ..

ويقول : **« أكلها دائم وظلها »**(٧) ..

ويقول : **« وما هم منها بمخرجين »**(٨) ..

كما اشتهرت باسم الفردوس ، أو دار المقامة • يقول تعالى : **« الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »**(٩) ..

---

(١) آل عمران : ١٣٣
(٢) آل عمران : ١٢
(٣) النبأ : ٢١ — ٣٠
(٤) الأنعام : ١٢٧
(٥) يونس : ٢٥
(٦) سورة ص : ٥٤
(٧) الرعد : ٣٥
(٨) الحجر : ٤٨
(٩) المؤمنون : ١١

ويقول : « **جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير • وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور • الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** »[10] ..

كذلك أطلق على النار أسماء عدة منها : سقر ، يقول الله تعالى : « **يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر** »[11] ..

ويقول : « **سأصليه سقر • وما أدراك ما سقر • لا تبقى ولا تذر • لواحة للبشر • عليها تسعة عشر** »[12] ..

كما أطلق عليها : السعير • يقول تعالى : « **ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، انما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** »[13] ..

ويقول : « **وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير** »[14] ..

كذلك اشتهرت بالنار ، وجهنم ، والجحيم ، وغيرها من الأسماء التى لا يتسع المقام لحصرها كلها •

وقد اختلف العلماء فى خلق الجنة والنار قبل يوم القيامة ، فأنكره جماعة من المعتزلة ، زاعمين أنه لا فائدة من خلقهما قبل يوم الثواب والعقاب ، وحملوا قوله تعالى « **أعدت للمتقين** »[15] .. على أنه من باب التعبير عن المستقبل بالماضى لتحقق وقوعه •

وذهب أهل السنة الى أن الجنة موجودة مخلوقة ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون** »[16] •

---

(١٠) فاطر : ٣٣ — ٣٥
(١١) القمر : ٤٨
(١٢) المدثر : ٢٦ — ٣٠
(١٣) فاطر : ٦
(١٤) الشورى : ٧
(١٥) آل عمران : ١٣٣
(١٦) آل عمران : ١٦٩

obeikandi.com

فقد روى أن ابن مسعود سأل عن هذه الآية فقيل له : « انه لما أصيب اخوانكم فى أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد فى أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب فى ظل العرش » .

كذلك روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « اذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وأغلقت أبواب النار ، وصفدت مردة الشياطين » .. فهذه وغيرها من الآيات والأحاديث تثبت وجود الجنة والنار الآن .

غير أن بعض العلماء سئل عن ذلك فقال : « السكوت عن هذا أفضل » .. وهذا جواب سديد فى هذا المقام ، لأن ذلك من الغيبيات التى لا يستطيع العقل البشرى أن يبحث فيها ، بل عليه أن يسلم بالنص كما هو ، دون أن يحاول شرحه أو التعليق عليه ، لأن ذلك فوق طاقته .

* * *

obeikandl.com

٣٤ ـ الملائكـــة

من الغيبيات التى لا يتم ايمان المسلم الا بها ، الايمان بوجود الملائكة ، لقوله تعالى : « **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته** »(١) ..

فمن لم يؤمن بوجود الملائكة فهو كافر ، لأنه أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة •

غير أن العلماء اختلفوا فى طبيعتهم ، فذهب الجمهور الى أنهم مخلوقين من النور ، اعتمادا على حديث ورد فى صحيح مسلم ، وفى مسند الامام أحمد بن حنبل ، وذهب آخرون الى أن النور لا يمكن أن يجسد لأنه أثر للنار ، وعليه فالملائكة مخلوقة من النار ، واعتمدوا فى ذلك على قوله تعالى : « **والجان خلقناه من قبل من نار السموم** »(٢) ..

فقالوا : ان الله خلق طبيعتين : الانسان من الطين ، والجان من النار ، وفسروا الجان ، بأنه ما جن ، أى استتر ، ولما كانت الملائكة مستترة لا ترى بالعين ، فهى من الجان •

ولكن لم يلق هذا الرأى قبولا بين المسلمين ، وظل الرأى السائد هو أن الله خلق الملائكة من نور ، كما خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، والجان هم الجن الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله تعالى : « **قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا • يهدى الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا** »(٣) ..

ولا يعقل أن يكون هؤلاء ملائكة ، لأن الملائكة مفطورون على العبادة فلا يحتاجون الى رسالة •

وعليه •• فيجب الايمان بالطبيعة الثالثة ، الذين خلقهم الله من نور ، كما يجب الايمان بأن الله فضل بينهم ، فمنهم الملائكة المقربون وهم :

---

(١) البقرة : ٢٨٥ (٢) الحجر : ٢٧
(٣) الجن : ١ ، ٢

جبريل ، وهو الموكل بابلاغ الوحى الى الأنبياء والرسل ، كما قال تعالى : « **نزل به الروح الأمين** »(٤) ...

وميكائيل ، لأنه ذكر فى قوله تعالى : « **من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين** »(٥) ..

واسرافيل ، وهو الموكل بالنفخ فى الصور يوم القيامة .

كما يجب الايمان بمالك خازن النار ، لقوله تعالى : « **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال انكم ماكثون** »(٦) ..

وخازن الجنة ، وقيل ان اسمه رضوان .

كما يجب الايمان بخزنة النار . لقوله تعالى : « **عليها تسعة عشر . وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة** »(٧) .

والحفظة ، لقوله تعالى : « **وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة** »(٨) .

وقوله : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** »(٩) ..

والكتبة . لقوله تعالى : « **وان عليكم لحافظين . كراما كاتبين** »(١٠) .

وجملة القول : انه يجب الايمان بمن ورد اسمهم من الملائكة فى القرآن الكريم : كما يجب الايمان بأن هناك ملائكة آخرين لحمل العرش ، وملائكة لقبض الأرواح وغيرهم .

والدليل على وجود الملائكة ووجوب الايمان بهم ، ذكرهم فى آيات عديدة فى القرآن الكريم ، وأمر الله المؤمنين بأن يصدقوا بوجودهم جملة وتفصيلا ، فمن يكفر بهم فقد تنكب الطريق المستقيم ، يقول الله تعالى : « **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** »(١١) .

---

(٤) الشعراء : ١٩٣
(٥) البقرة : ٩٨
(٦) الزخرف : ٧٧
(٧) المدثر : ٣٠ ، ٣١
(٨) الأنعام : ٦١
(٩) الرعد : ١١
(١٠) الانفطار : ١٠ ، ١١
(١١) النساء : ١٣٦

كذلك ورد الاخبار بهم فى أحاديث رسول الله ﷺ ، منها ما رواه مسلم أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه عندما يقوم لصلاة الليل : « اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك ، انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم » ..

وقوله : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع الا وعليه ملك ساجد » ..

أضف الى ذلك أن العقل لا يحيل وجود الملائكة ، خاصة وأن لهم آثارا تدل على وجودهم ، ومن هذه الآثار :

(أ) وصول الوحى الى الأنبياء والمرسلين ، اذ كان غالبا ما يصلهم بواسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام ، وهو الملك الموكل بالوحى .

(ب) وفاة الناس بقبض أرواحهم ، فانه أثر ظاهر ، كذلك هو دال على وجود ملك الموت وأعوانه ، يقول الله تعالى : « **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم** »(١٢) ..

وأخيرا .. اجماع الناس على أن عدم رؤية الشىء لضعف البصر ، أو لفقد امكانية الرؤية ، لا ينفى وجوده ، فهناك الكثير من الأشياء المادية لم تر الا بعد اختراع المنظار ، فكذلك عدم رؤية الملائكة لا ينفى وجودها ، لأنه ليس لدينا من الامكانيات ما يساعدنا على رؤيتها ، وما دام قد أخبرنا الوحى بوجودها فيجب الايمان بها .

* * *

(١٢) السجدة : ١١

obeikandi.com